

السماء والسموات في القرآن الكريم

عبد المجيد بن محمد بن علي الغيلي

٢٠١٥م / ١٤٣٦هـ

موقع رحى الحرف

السماء والسموات

في القرآن الكريم

عبد المجيد بن محمد بن علي الغيلي

٢٠١٥م / ١٤٣٦هـ

موقع رحى الحرف

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف.

(ترقيم الكتاب موافق لنسخة المؤلف)

للاقتباس:

السماء والسموات في القرآن الكريم، عبد المجيد بن محمد بن علي الغيلي،

٢٠١٥م / ١٤٣٦هـ، منشور على موقع المؤلف: رحى الحرف، ص ...

الفهرس:

٢	الفهرس:
٧	مقدمة:
٩	خلاصة الدلالات
٩	١/ السماء والسموات
١٤	٢/ لفظ (الكون):
١٨	٣/ لفظ (الفضاء):
٢١	المبحث الأول: المراحل الفاصلة في السموات والأرض وما فيهن ومن فيهن
٢٣	المبحث الثاني: ما قبل خلق السموات والأرض
٢٥	المطلب الأول: الماء:
٢٦	المطلب الثاني: العرش:
٢٦	١/ العرش في القرآن الكريم:
٣٠	٢/ العرش في السنة:
٣٣	٣/ العرش في اللغة:
٣٥	٤/ عرش الرحمن:
٣٧	المطلب الثالث: الكرسي:
٣٧	١/ دلالة آية الكرسي:
٤٠	٢/ الدلالة اللغوية للكرسي:
٤٣	٣/ (وهو العلي العظيم) وصف للكرسي:
٤٥	٤/ علاقة الكرسي بالعرش
٤٧	المبحث الثالث: المرحلة الأولى: خلق السموات والأرض
٤٧	المطلب الأول: خلق/ فطر السموات والأرض
٤٧	أولاً: خلق السموات والأرض وما فيهما
٥٠	ثانياً: فطر السموات والأرض:

- ٥٣ ثالثاً: أصل السماوات والأرض:
- ٥٥ المطلب الثاني: كانتا رتقا ففتقناهما
- ٥٦ أولاً: الرتق
- ٥٨ ثانياً: الفتق
- ٦١ ثالثاً: بيان الآية (كانتا رتقا ففتقناهما):
- ٦٤ المطلب الثالث: مدة الخلق
- ٦٦ المطلب الرابع: ترتيب الخلق
- ٦٦ أولاً: آيات ترتيب الخلق:
- ٦٧ ثانياً: دلالة الاستواء:
- ٧٠ ثالثاً: الخلق قبل الفتق:
- ٧٣ المطلب الخامس: حديث القرآن عن خلق السماوات والأرض:
- ٧٥ المبحث الرابع: المرحلة الثانية: التسوية
- ٧٧ المطلب الأول: خلاصة مرحلة التسوية
- ٨١ المطلب الثاني: الدخان
- ٨٦ المطلب الثالث: البناء
- ٩١ الفرع الأول: بناء السماء:
- ١٠٢ الفرع الثاني: ذات الحيك:
- ١١٤ الفرع الثالث: (وانا لموسعون):
- ١١٧ الفرع الرابع: (رفع سمكها):
- ١٢٠ الفرع الخامس: (ووضع الميزان):
- ١٢٣ الفرع السادس: أغطش ليلها وأخرج ضحاها:
- ١٣٣ المطلب الرابع: تسوية السماوات السبع:
- ١٣٣ الفرع الأول: فسواهن سبع سماوات:
- ١٣٦ الفرع الثاني: ومن الأرض مثلهن:
- ١٣٧ الفرع الثالث: وأوحى في كل سماء أمرها:

- ١٤١ الفرع الرابع: سبع طباق
- ١٤٤ الفرع الخامس: (المسافات بين السماوات)
- ١٤٨ المبحث الخامس: السماء الدنيا
- ١٤٨ المطلب الأول: مفهوم السماء الدنيا
- ١٥٢ المطلب الثاني: ما في السماء الدنيا
- ١٥٢ ١/ المصاييح:
- ١٥٤ ٢/ النجوم:
- ١٦١ ٣/ الكواكب:
- ١٦٣ ٤/ السراج:
- ١٦٨ ٥/ البروج
- ١٧٠ ٦/ الشهب:
- ١٧٤ المطلب الثالث: زينة السماء الدنيا:
- ١٧٩ المبحث السادس: السماء: الغلاف الجوي للأرض، وما علا الإنسان من الأرض..
- ١٨٨ المبحث السابع: السماوات في القرآن:
- ١٨٨ أولاً: الحديث عن خلق (السماوات والأرض)
- ١٩٢ ثانياً: مع أفعال الله وصفاته:
- ٢٠١ ثالثاً: موقع السماوات والأرض بالنسبة لغيرهن.
- ٢٠٤ رابعاً: مصير السماوات ..
- ٢٠٥ خامساً: عرض الأمانة على السماوات والأرض
- ٢٠٥ سادساً: النظر والتفكير:
- ٢٠٧ المبحث الثامن: المرحلة الثالثة: مرحلة التدبير
- ٢٠٧ المطلب الأول: استوى على العرش:
- ٢١٣ المطلب الثاني: يدبر الأمر من السماء إلى الأرض:
- ٢١٩ المبحث التاسع: نهاية الخلق ومراحله
- ٢١٩ أولاً: سياق الآيات

- ٢٢١ ثانياً: مراحل نهاية الخلق
- ٢٢٦ ثالثاً: تبديل الأرض والسموات
- ٢٣٠ رابعاً: النفخ في الصور ونهاية الخلق
- ٢٣٣ المبحث العاشر: السياق اللغوي المستخدم مع السماء والسموات
- المطلب الأول: السياق اللغوي في الحديث عن السماء (الأولية)، أو (الدنيا) في
- ٢٣٣ بداية الخلق
- ٢٣٩ المطلب الثاني: التراكيب اللغوية المستخدمة مع السماء والسموات:
- ٢٤٣ المطلب الثالث: عودة الضمائر إلى السموات والأرض
- ٢٤٣ أولاً: عودة ضمير الجمع:
- ٢٤٥ ثانياً: عودة ضمير المثني:

مقدمة:

أولى القرآن الكريم السماء والسموات عناية خاصة، فقد ذكر (السماء) مائة وعشرين مرة، وذكر (السموات) مائة وتسعين مرة، أي أنهما ذكرا معا ثلاثمائة وعشر مرات. وقد تنوع الحديث عنهما في سياقات متعددة. والسؤال الذي أعنى به في هذا البحث هو: ما مفهوم كل منهما في القرآن الكريم؟ وما الفرق بينهما؟ وما السياقات التي ترد مع كل منهما؟

وقد جاء هذا الكتاب في عشرة مباحث. تناولت فيها: ما قبل خلق السماوات والأرض، ودرست المراحل الفاصلة في خلق السماوات والأرض، وهي ثلاث مراحل: الأولى: الخلق؛ خلق السماوات والأرض، والثانية: التسوية؛ تسوية السماء والأرض، وتسوية السماوات السبع، والسماء الدنيا. والمرحلة الثالثة: التدبير. ثم تناولت مرحلة مصير السماوات والأرض، ونهاية الخلق.

وقد أثرت كثيرا من القضايا والمسائل العلمية في هذا الكتاب، وناقشتها بالدليل البين، والبرهان الساطع، ومن ذلك: مفهوم الكرسي والعرش، وعلاقة العرش بالتدبير، ومرحلة الرق والفتق، وترتيب الخلق والتسوية، ومدة الخلق، ودلالات السماء المختلفة، والاقترانات السياقية مع كل دلالة. ومفهوم الاستواء، وحررت الفرق بين مفاهيم: المصابيح والنجوم

والكواكب والبروج. ومفهوم الأمر والتدبير، ومفهوم تبديل السماوات والأرض... إلخ.

وأخيراً لخصت السياقات اللغوية المستخدمة مع (السماوات) ومع (السماوات)، وتحدثت عن عودة الضمير جمعاً أو تثنية إلى (السماوات والأرض)...

اللهم رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، تعالى الله الملك الحق، سبحانه ما خلقتنا عبثاً، وما خلقت السماوات والأرض وما بينهما باطلاً. حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت، وبه آمنت، وله سجدت، سبحانه عما يصفك به الجاهلون. فيا خالق كل شيء أسألك أن ترحمني، وأن تجيرني من عذابك، وأن تسكنني جوارك في مقعد صدق عندك، مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

عبد المجيد محمد علي الغيلي

الرياض

رجب - ١٤٣٦هـ / مايو ٢٠١٥م

abdmmys81@hotmail.com

خلاصة الدلالات

بعد دراسة أحصيت فيها كل مواطن ذكر السماء والسموات في القرآن الكريم، توصلت إلى ما يلي:

١/ السماء والسموات

أولاً: السماء

يرد ذكر (السماء) في القرآن الكريم في السياقات التالية:

١) السماء الأولية:

ويأتي في سياق الحديث عن البداية والنهاية: بداية السماء، وكونها دخانا، وقولها وبكائها، وبنائها، ورفعها، وهذه السماء الأولية (التي كانت قبل تسوية السماوات، فلم تكن ثمة إلا سماء واحدة). وهي السماء التي يتحدث عنها في النهاية، وأجلها المسمى، وما يحدث لها إيدانا بقيام الساعة، وطبيها.

كقوله: { أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا }، وقوله: { وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ }.

أقصد بالسماء الأولية: السماء التي كانت وحيدة قبل تسويتها إلى سبع سماوات، وهذه السماء هي رحم السماوات، وكانت مع الأرض في الرق، ثم وقع الفتق عليهما، ثم استوى إليها الله وهي دخان، ثم رفع سمكها وسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها.

ثم بعد ذلك سوى الأرض.

ثم بعد ذلك سوى تلك السماء إلى سبع سماوات، فلم تعد السماء الأولية موجودة، بل أصبح هناك سبع سماوات، أدناها (السماء الدنيا).

(٢) السماء الدنيا:

الحديث عن جعل السماء زينة، وحفظا، وما فيها من بروج ومصابيح ونجوم وكواكب وشمس وقمر. وهذه هي السماء الدنيا.

كقوله: { وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ }،
وقوله: { وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ }

(٣) المجال الجوي للأرض:

الحديث عن جو السماء، وهي المجال الجوي الذي تطير فيه الطيور، أو تنشأ فيه السحب، أو ينزل منه الماء. وهذه السماء هي المجال الجوي للأرض. وسأتحدث عنها في بحث الأرض.

كقوله: { اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ }، وقوله: { أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ }، وقوله: { وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا } .

٤) ما علا الأرض

ما ينزل من السماء أو يصعد إليها من شيء أو آية أو عذاب أو رزق. وهذه تشمل المجال الجوي للأرض وما علاها من السماء الدنيا.

كقوله: { إِنَّ نَشْأَ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً }، وقوله: { وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ } .



ثانياً: السماوات

أما (السماوات) فورد ذكرها في السياقات التالية:

١) الحديث عن خلق (السماوات والأرض). كقوله: { إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } . والقرآن حين يتحدث عن الخلق يرد معه لفظ (السماوات) لا لفظ (السماء). وسأبين هذا لاحقاً.

٢) حين يذكر أن الله سواه سبعمائة سماوات، وقد جعلها سبعة طباقاً، والمراد بذلك أنها سبع سماوات والسماء الدنيا إحداهن، وقد خلقها الله

متطابقة (بعضها فوق بعض)، وأوحى في كل سماء أمرها، وهن في غير المدى المدرك للبشر. ولا شك أن السماوات أكثر من السماء وأكبر منها، فهن أعظم وأكثر. كقوله: { أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا }

(٣) مع أفعال الله وصفاته: (أفعال الخلق) خلق، فاطر، بديع، (صفات العلم والإحاطة): علم الله، وعلمه بالغيب والسر، وعلمه بغيب الساعة، (الملك): له الملك، الملكوت، له ميراث، له ما في السماوات وما في الأرض، له خزائن... (القهر والعلو والتدبير): له مقاليد، له الكبرياء، وخضوع المخلوقات لأمره، فتسبحه وتسجد له... (المثل الأعلى): له الحمد، له المثل الأعلى، الله نور، وحيثما ورد لفظ العرش والكرسي.

(٤) السماوات الجديدة، التي سيبدلها الله يوم القيامة (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ)، وهن السماوات الواردة في قوله (خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض).

وقد وردت سياقات أخرى جاء فيها لفظ (السماء)، ولفظ (السماوات). سأعرضها لاحقاً.

فالسماوات إذن هي جزء من الملك الإلهي، وهو الجزء الذي يتنفس فيه التدبير، وفيه خلقه الذين يخضعون له. وهو الجزء الذي يخبرنا كثيراً عنه، فنحن ننتمي إلى هذا الجزء.

وهناك جزء آخر غير السماوات والأرض، لا نعلم عنه إلا ما أخبرنا القرآن الكريم، ومن ذلك: الكرسي (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)، فهو محيط بالسماوات والأرض. والعرش، وهو ظلة فوق المخلوقات كلها، وهو العرش العظيم. والماء الذي كان عرشه عليه (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ). وكذلك سدرة المنتهى، والجنة التي عرضها كعرض السماوات والأرض (وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ)...

والذي يتبين لي بالنظر في القرآن الكريم أن السماوات والأرض هي مجال المعاش في الحياة الدنيا. وحين تقوم الساعة تبدل الأرض والسماوات. وتكون ساحة الحشر والحساب. ثم بعد ذلك يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار. والجنة والنار خارج مدى السماوات. الجنة في عليين والنار في سجين. ولكنهما خارج مدى السماوات.

وعليه فالسماوات هي مكان الإقامة لخلق الله في الحياة الدنيا. وأما في الدار الآخرة فالجنة والنار خارج هذا المدى، وتكون السماوات والأرض (بعد تبديلهما) باقيتين: (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ).



إذن فالسمااء تطلق على أربع دلالات، يحددها السياق: السمااء الأولية، والسمااء الدنيا، والمجال الجوى للأرض، والدلالة الأخيرة: تشمل ما علا الإنسان من الغلاف الجوى وما فوقه من السمااء الدنيا.

أما السماوات فهي تشمل السمااء الدنيا والسماوات الست الأخرى، فهي أكبر وأوسع وأعظم؛ ولذلك ترد أفعال الله وصفاته مع السماوات.



٢ / لفظ (الكون):

يشيع على ألسنة الناس اليوم لفظ (الكون: universe)، ويقولون: الله خالق الكون، وهذا الكون، ويقصدون به: ما خلقه الله من السماوات والأرض وما فيهما. فأصبح مرادفاً للفظ: السماوات والأرض.

وينبغي أن أقرر ما يلي:

أولاً: هذا اللفظ ترجمة للفظ الإنجليزي (universe)، ويعود اللفظ إلى اللاتينية (universum)، ويعني: كل شيء، أو كل العالم. وهو يعني في اللغة العلمية المعاصرة كما في قاموس أكسفورد، وقاموس التراث الأمريكي: (جميع الأشياء والزمان والمكان والطاقة، بما في ذلك النظام الشمسي والنجوم والمجرات، والفضاء الذي بينها) (ويعتقد أن عمر

الكون بدأ منذ الانفجار العظيم قبل حوالي ١٣ مليار سنة، ويساوي قطره ١٠ مليار سنة ضوئية على الأقل).

وجاء في الموسوعة العربية العالمية: (الكون: يشمل كل الفضاء وكل المادة والطاقة التي يحتويها. ولا يعرف الفلكيون مدى اتساع الكون. فربما يمتد إلى ما لا نهاية؛ أي يمتد في كل اتجاه بدون نهاية).

فمفهوم الكون في التراث الغربي: المدى المدرك للبشر (أو ما أمكنهم إدراكه وتقديره)، وهو وسط مادي يدخلون فيه ما يدركونه فعلا، من المواد والطاقة، ويستبعدون عنه ما لا يدركونه. كما أنهم يقيسونه بالسنين الضوئية، ويفترضون امتداده إلى ما لا نهاية.

وهذا المفهوم يخالف مفهومنا من ناحيتين:

الأولى: اشتماله على المادة والطاقة، ونحن نقول أنه يشتمل على ما ندركه وما لا ندركه، مما يزخر به عالم الغيب والشهادة.

والثانية: فنحن نقر بأن (السموات والأرض) شاسعة الاتساع، ولا نعلم مداها، ولكن لها نهاية مكانية وزمانية. وهناك ما هو أعظم منها وأكبر، كالكرسي والعرش.

ثانياً: جاء في القرآن الكريم لفظ (السماء) و(السموات)، والسماء الدنيا تشمل كل ما أدركه البشر من المجرات والبروج والنجوم، والنظام الشمسي هو ضمن السماء الدنيا... وهذه السماء الدنيا وما فيها واحدة من سبع سماوات خلقها الله، وخلق غيرها مما لا نعلمه.

ونحن المسلمين نعتقد أن الله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض، وخلق غيرهما، كالكرسي والعرش، وفي السماوات مخلوقات لا ندركها أخبرنا القرآن الكريم عنها، كالملائكة. وفي الأرض أيضاً: الجن... وكل هذه لا تدخل ضمن مفهوم (الكون).

ثالثاً: لا يصح إطلاق لفظ (الكون) مرادفاً لـ(كل شيء)، فلا نقول: الله خالق الكون [بمعنى: الله خالق كل شيء]، فالكون هو وسط مادي محدود في مفهومه العلمي. ولا يشمل: الكرسي والعرش، وغيرهما مما هو خارج مدى السماوات والأرض. بل نقول للتعبير عن (كل شيء)، كما قال الله: (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ).

وكذلك لا يصح إطلاق لفظ (الكون) مرادفاً للسماوات والأرض وما بينهما، فلفظ (الكون) لا يشمل إلا المدى المدرك للبشر، وكل هذا المدى هو في السماء الدنيا، فنقول: السماوات والأرض وما بينهما، كما قال القرآن الكريم، للتعبير عن ذلك.

وكذلك لا يصح إطلاق لفظ (الكون) للتعبير عن السماء الدنيا وما فيها، فهو لا يشمل إلا الأشياء المحسوسة للإنسان من مادة وطاقة، ولا يشمل ما عدا ذلك. فنسمي السماء: السماء، ونسمي الأرض: الأرض. والسماء تشمل كل النجوم والكواكب والمجرات، وما بينهما من خلق نعلمه، وخلق لا نعلمه.

كما أننا نسمي المدارات والمجالات التي تتحرك فيها النجوم والكواكب والشمس والقمر... نسميها: الفلك، قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)، وقال: (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ). ونسمي الدارسين للنجوم والكواكب وما في السماء: علماء الفلك (أو: الفلكيين). ولا نقول: علماء الكون. ونقول: (الفيزياء الفلكية) بدلا من: (الفيزياء الكونية).

إن مصطلح (الكون)، مصطلح لا يمت بصلة إلى القرآن الكريم، والمفاهيم التي يؤسسها، وبينها، فهو مصطلح يشهد بمفهوم مختزل للمدرك البشري، ويريد أن يدخل الله في "شرنقة" الإدراك البشري للخلق. الإنسان لم يدرك بعد نفسه إدراكا جيدا، وما يجهله من نفسه أعظم وأكثر مما يعلمه، فكيف نحد الله بإدراكاتنا. لنسمي الأشياء كما سماها الله سبحانه وتعالى، ولا نقوم نيابة عن الله بوضع الألفاظ للدلالة على

مفاهيم ودلالات ومعانٍ إلهية، فستظل أفاظنا قاصرة، ومفاهيمنا بشرية، ولا يصح اختزال المعطى الإلهي في الإدراك البشري.

فهذه دعوة لتنقية أفاظنا، وتنقية النظام المفاهيمي لنا – المسلمين – وتطهيره بنور القرآن الكريم، وهدايته، وعدم تلويثه بمفاهيم غريبة عنه. وفي جهلة منا نطن أننا ن نصف الحقائق كما يخبرنا القرآن الكريم، ونحن بعيدون بعدا شاسعا عن ذلك.

٣ / لفظ (الفضاء):

ومن تلك الألفاظ التي نستخدمها فنسيء لكتاب ربنا (دون أن نعلم)، لفظ: الفضاء (space). ويطلقونه [كما في قاموس أكسفورد] على "الكون المادي خارج الغلاف الجوي الأرضي". ولفظ الفضاء يعني: الفراغ.

جاء في الموسوعة العربية العالمية: (الفضاء هو الفراغ القريب الذي تتحرك فيه جميع الأجسام الموجودة في الكون. فالكوكب، والنجوم وحتى المجرات التي تتكون من بلايين النجوم، نقاط صغيرة مقارنة بالاتساع الهائل للفضاء).. (يحيط الهواء بالأرض ويكون غلافها الجوي. وكلما بعدت المسافة عن الأرض يصبح الهواء أكثر رقة. ورغم عدم وجود حدود واضحة بين الغلاف الجوي والأرض، فإن أغلب الخبراء يعتقدون أن الفضاء يبدأ

من ارتفاع ٩٥ كم من سطح الأرض. والفضاء الخارجي الذي يعلو الغلاف الجوي مباشرة ليس فارغاً تماماً، ولكنه يحتوي على جسيمات هوائية وغبار فضائي وقطع معدنية وحجرية غير منتظمة الأشكال تسمى النيازك. كما تنتقل خلاله أنواع كثيرة من الإشعاعات)...

الفضاء إذن هو الفراغ. وحين نقلب صفحات القرآن الكريم لا نجد شيئاً اسمه الفراغ، بل يذكر القرآن الكريم دائماً لفظين:

الأول: أن السماء بناء، وليس فضاء. فالسمااء مبنية، والمبني ليس فيه فراغات، فهو مملوء بالمادة والطاقة، وبما لا نعلمه من الأشياء.

الثاني (ما بينهما)، فالقرآن الكريم يتحدث باستمرار عن: (السماءات والأرض وما بينهما)، إذن فهنا أشياء بينهما، وهذا (الما بين) لا يصح أن يسمى فضاء، بل يسمى: ما بين السماء والأرض، ونقول: البناء السماوي، ولا نقول: الفضاء.

وتسمية (الفضاء) دالة على قصور إدراك الإنسان، فهو يرى فراغاً، فسمى ذلك: فضاء، ولكن الحقيقة مختلفة، فهذا ليس فراغاً، بل هو عجز للإدراك البشري عن تبين حقيقة الأمر، والله سبحانه وتعالى يقول: (فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَّا تُبْصِرُونَ)، فهناك أشياء نبصرها وأشياء لا نبصرها. ولا يوجد في خلق الله فراغ، بل كل شيء مبني ومملوء، أبصرنا

بعضاً من ذلك، وعجزنا عن إِبصار بعض آخر. ومن القصور أن نسمي الأشياء ببعض ما فيها متناسين - أو متجاهلين أو عاجزين عن إدراك - خواص أخرى لها.

ولهذا الكلام بقية.

المبحث الأول: المراحل الفاصلة في السماوات والأرض وما

فيهن ومن فيهن

بالتدبر في آي الكتاب الكريم، والحديث عن السماء والسماوات والأرض، تبين أن ثمة ثلاث مراحل فاصلة في السماوات والأرض وما فيهن ومن فيهن، وهي كالتالي:

المرحلة الأولى: مرحلة الخلق (خلق السماوات والأرض)، وفيها خلق الله السموات والأرض وما فيهن، فكانت السماوات والأرض رتقا، حتى فتقهما الله. [وهذه في أربعة أيام].

المرحلة الثانية: مرحلة التسوية، وهي إتمام الخلق، فرفع السماء وسواها، ودحا الأرض وفرشها، ثم سوى السماوات السبع.

وهذه المرحلة بدأت حين (استوى إلى السماء)، فاستوى إلى السماء وهي دخان، ثم سوى السماء، ودحا الأرض، ثم سوى السماوات السبع. [وهذه في يومين، وبذلك تمت ستة أيام].

المرحلة الثالثة: مرحلة التدبير: فبعد خلق السماوات والأرض استوى على العرش، يدبر الأمر.

والمرحلتان الثانية والثالثة، بدأهما بالحديث عن الاستواء، فأول المرحلة الثانية قال: (ثم استوى إلى السماء)، وأول المرحلة الثالثة قال: (ثم استوى على العرش). ولم ينسب فعل (استوى) إليه إلا في هذين الموضعين. راجع دلالة الفعل في بحثي عن (سوى في القرآن الكريم).

وفي هذا البحث (السماء والسموات في القرآن الكريم) سأبسط الأدلة على ما ذكرته هنا من هذه المراحل.

والمتتبع لأي القرآن الكريم يجد أن أفعال الله المستخدمة في كل مرحلة ذات طابع خاص تختلف عن المراحل الأخرى. ففي المرحلة الأولى، يستخدم فعل الخلق واقعا على السماوات والأرض، وفي المرحلة الثانية يستخدم أفعالا أخرى، مثل: جعل، أنشأ... الخ، وتقع على المخلوقات التي في السماوات والأرض. وفي المرحلة الثالثة تستخدم أفعال التدبير، والتسخير... الخ. وسأوضح هذا لاحقا.

وبعد ذلك يأتي الحديث عن السماء والسماوات والأرض في نهاية الخلق.

المبحث الثاني: ما قبل خلق السماوات والأرض

ما الذي كان قبل خلق السماوات والأرض؟

قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) [سورة هود]، تفيد الآية أن العرش كان على الماء من قبل خلق السماوات والأرض، فالعرش والماء كانا قبل السماوات والأرض.

وحديث عمران بن حصين في صحيح البخاري أن أهل اليمن سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: نسألك عن أول هذا الأمر، فقال: "كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء". وفي رواية له: "كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض".

قال ابن حجر في فتح الباري: (وفيه دلالة على أنه لم يكن شيء غيره، لا الماء ولا العرش ولا غيرهما؛ لأن كل ذلك غير الله تعالى).

وروى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء".

روى أحمد والترمذي من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً: "أول ما خلق الله القلم، ثم قال: اكتب فجرى بما هو كائن إلى الأبد"، وصححه الألباني وغيره.

قال ابن حجر: (أولية القلم بالنسبة إلى ما عدا الماء والعرش أو بالنسبة إلى ما منه صدر من الكتابة، أي أنه قيل له، اكتب أول ما خلق).

فهذه الأحاديث أفادت أن خلق السماوات والأرض لم يكن أول المخلوقات، بل خلق الله قبلها الماء والعرش، وهذا تفيده آية هود أيضاً (وكان عرشه على الماء). وأفادت الأحاديث أيضاً أن الله خلق القلم وكتب المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض، ومما كتبه خلق السماوات والأرض وما فيهما وما هو كائن فيهما إلى الأبد.

وسأتحدث هنا عن: الماء، والعرش، والكرسي.

وأما القلم فسأتحدث عنه في بحثي: (يدبر الأمر) في القرآن الكريم.

المطلب الأول: الماء:

تحدثت عن الماء والتراب في بحثي: (من أفعال الخلق - دراسة معجمية وموضوعية). وخلاصة ما توصلت إليه ما يلي:

- (١) الماء مخلوق من قبل خلق السماوات والأرض.
 - (٢) (التراب مع الماء) أصل، منه خلق الله كل شيء حي.
 - (٣) الماء سبب لحياة كل شيء.
 - (٤) التراب، [كما رجحته] أصل لكل شيء حي وغير حي، ينفرد في الأشياء غير الحية، ويشترك معه الماء في الأشياء الحية.
 - (٥) التراب مادة الأصل، والنطفة مادة النسل.
- وأكتفي بما بسطته هناك.

المطلب الثاني: العرش

١/ العرش في القرآن الكريم:

في القرآن الكريم إحدى وعشرون آية تتحدث عن "العرش"، وهي

كالتالي:

آية بينت أن العرش كان قبل خلق السماوات والأرض، وأنه كان على الماء، قال تعالى في سورة هود: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ).

ست آيات تحدثت أن الله خلق السماوات والأرض (وما بينهما) في ستة أيام، ثم استوى على العرش. (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) (سورة الأعراف، ويونس، والرعد، والفرقان، والسجدة، والحديد). ويلحظ في خمسة من هذه المواضع الستة أنها تذكر مدة الخلق (ستة أيام)، ثم الاستواء على العرش. والآية السابعة تحدثت عن استواء الرحمن على العرش دون ذكر الترتيب السابق، في سورة طه: (تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا (٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى). وسأتحدث عن دلالة قوله: (ثم استوى على العرش) في المرحلة الثالثة: التدبير.

ست آيات تحدثت عن (رب العرش)، وكلها جاءت في سياق عظمتها العظيمة المطلقة، وتعالیه، وتنزيهه عما يصفه المشركون من نسبة الولد والشريك إليه، أو نسبة العبث، قال تعالى: (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)، وقال تعالى (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)، وقوله تعالى: (أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)، وقوله تعالى: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ)، وقوله تعالى: (قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)، وقوله تعالى: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ).

وفي هذه المواضع وصف العرش بصفتين: العظيم، والكريم، ويدل الوصف على عظم قدره وجلالته عند ربه. ووصفه بالكريم يدل على صلة ما بينه وبين المخلوقات الأخرى، كما سيتبين لنا عند الحديث عن (استوى على العرش). وفي الآية الأولى بيان لعظمة العرش العظيم، فهو يسأل المشركين: من رب السماوات السبع، وهو سؤال عظيم، فالسماوات السبع عظيمة جدا، ثم جاء السؤال عما هو أعظم: ورب العرش العظيم، فهو أعظم من السماوات السبع. وتدلل الآيات على أن العرش مربوب كسائر المخلوقات.

وأربع آيات جاءت بصيغة (ذي العرش)، وهو الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا)، وقال: (رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ)، وقال: (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ)، وقال: (وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ). وهذه الآيات يفهم منها علو العرش، فالآية الأولى تأتي في سياق تعظيم الله، ويفهم منها أن العرش أعلى المخلوقات، فلو كان ثمة آلهة لابتغوا إلى ذي العرش، ولا شيء فوق العرش وإلا ذكر ابتغاءهم السبيل إليه. وفي الآية الثانية وصف لربنا بأنه رفيع الدرجات، ثم قال: ذو العرش، فيفهم منها أن درجة العرش هي أعلى الدرجات، والله سبحانه وتعالى رفيع الدرجات. والآية الثالثة تتحدث عن جبريل الرسول الكريم (ولاحظ وصفه بالكريم، ووصف العرش بالكريم)، فهو مكين عند ذي العرش، ولعل الآية والله أعلم تشير إلى مقام جبريل، الذي يتلقى الأمر من ربه، فيصل إلى مقام عال في العرش.

وثلاث آيات تتحدث عن الملائكة وحملهم للعرش، قال تعالى: (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ)، وقال: (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤) وَتَرَىٰ

الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين، وقال: (والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية). فالآية الأولى والثانية تفيد أن هناك من الملائكة من يحمل العرش، وأن هناك من يحف به، ولهذا قال في الآية الأولى (ومن حوله)، وهو ما صرحت به الآية الثانية (حافين من حول العرش)، وأن هؤلاء جميعا يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للمؤمنين. كما أن الآية الثانية تفيد أن المؤمن سيرى هؤلاء الذي يحفون بالعرش حين يدخل الجنة، فالآية جاءت في سياق الحديث عن اليوم الآخر (في آخر سورة الزمر). وتفيدنا الآية بأن أعظم الأفعال هي التسبيح بحمد الله والإيمان به وطلب مغفرته، فهي أعمال أرفع الملائكة، وهي الأعمال التي يقولونها وهم يحملون عرشه ويحفون به، والله المثل الأعلى (فالناس في الدنيا إذا كانوا بحضرة الملوك تخيروا أفضل ما يرضي الملوك ليقولوه بين أيديهم). وأما الآية الأخيرة فتتحدث عن مجيء الرب يوم القيامة للفصل بين خلقه، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية.

فالأيات الكريمة تبين لنا ما يلي:

- (١) وجوده: العرش كان على الماء، من قبل السماوات والأرض.
- (٢) وظيفته: استوى الرحمن على العرش بعد خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ولهذا صلة بتدبير الأمر.

ولم تنص آية منها أنه استوى على العرش قبل خلق السماوات والأرض، بل بعد خلقها، كما يفيد لفظ (ثم).

(٣) مكانته بين المخلوقات: العرش أعظم من السماوات والأرض، وهو عظيم كريم، والله سبحانه وتعالى ربه. والعرش أعلى المخلوقات، ودرجته أعلى الدرجات.

(٤) حملته: للعرش حملة من الملائكة، وبعضهم يحف به، وهم يسبحون بحمد ربهم، والمؤمن سيراهم في الجنة. ويوم الفصل سيحمل عرش ربك فوقهم ثمانية.

٢/ العرش في السنة:

وقد جاء ذكر العرش في أحاديث كثيرة، وهي تبين مجموعة من الحقائق:

الأولى: وجود العرش: العرش كان على الماء، من قبل السماوات والأرض. وقد بينت هذا الآيات أيضاً. ففي حديث عمران بن حصين في صحيح البخاري أن أهل اليمن سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: نسألك عن أول هذا الأمر، فقال: "كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء".

الثانية: مكانته بين المخلوقات:

فهو أعظم من الكرسي، والكرسي أعظم من السماوات. كما في الحديث الذي أخرجه ابن جرير وغيره، وصححه الألباني: «ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة». وسأتحدث عن الحديث لاحقاً (انظر: الكرسي).

كما أن العرش أثقل مخلوق، ففي حديث جويرية مرفوعاً في مسلم: «لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات، لو وُزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته». فقال (وزنة عرشه)، فعدّ وزنه، كما عدّ (عدد الخلق).

وهو أعلى المخلوقات، ففي البخاري عن أبي هريرة يرفعه: «إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله، فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة».

الثالثة: وظيفته، ولها صلة بالتدبير، كما في حديث أبي هريرة في البخاري مرفوعاً: «إن الله لما قضى الخلق، كتب عنده فوق عرشه: إن

رحمتي سبقت غضبي». وفي مسلم عن جابر مرفوعا: «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ». وهذا لأن له صلة بتدبير أمر المخلوقات.

وهناك أحاديث أخرى، إلا أن مجملها يبين - كما تبين الآيات: وجوده، ومكانته بين المخلوقات، ووظيفته.

٣/ العرش في اللغة:

ما الدلالة اللغوية لـ (عرش)؟

في مقاييس اللغة: (العين والراء والشين أصل صحيح واحد، يدل على ارتفاع في شيء مبني، ثم يستعار في غير ذلك).

والمتبع لاشتقاقات الجذر، يتبين له أن العرش يدل على:

الشيء المرتفع الذي يظل ما تحته

عَرَشَ يَعْرِشُ: بنى سقفا من خشب يستظل به، ومنه قوله: (وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ)، (وَأَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ). فالعرش يطلق على السقف وهو أرفع ما في البناء، وليس على مطلق البناء. ومنه العرش الذي يصنع للعنب، وهو سقف من خشب ترفع عليه أغصان العنب، قال تعالى: (جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ). ويطلق على السقف الذي يبنى للاستظلال به: عرش وعريش.

وعَرَّشَ يُعَرِّشُ: وفي الأثر: (فَجَاءَتْ حُمْرَةٌ فَجَعَلَتْ تُعَرِّشُ)، قال ابن الأثير: (التعريش: أن ترتفع وتظلل بجناحيها على من تحتها).

والعرش: سقف البيت؛ لأنه أرفع ما فيه، وهو ظللة البيت، وجمعه: عروش. قال تعالى: (فَكَأَيُّ مَن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا)، وفي الآية تصوير بديع، فإن العرش هو السقف الذي يستظل به وهو أرفع ما في البناء، وحين تصبح القرية خاوية على عروشها، أي تصبح تلك العروش المرتفعة في قاع الأرض، فلم تعد عروشا، بل أصبحت أرضا، وأصبحت الجدران والأعمدة خاوية عليها (أي: ساقطة عليها)، بدلا من أن تكون هي قائمة على الأعمدة والجدران. فهو تصوير بديع للخراب الذي حل بالقرية.

ويقال لقوام الرجل: عرش، تقول العرب: ثلَّ عرشه، إذا تهدم أساسه وقوامه، كما قال زهير: تداركتما الأحلافَ قد ثلَّ عرشها. وذلك أخذا من الارتفاع، فالسقف لا يقوم إلا على أساس، فعرش الرجل أو القوم: أساسه الذي يحمل سقفه. وبذلك سمي عرش الملك، لكونه مقام عزه وسلطانه، ولأنه أعلى ما لديه، وأرفع المجالس، وبه تحل الأمور وتعتد، وبه يمارس مهامه وسلطانه، ولو سقط عرشه لما بقي أمره.

فالخلاصة أن دلالة العرش في اللغة، تشتمل على ثلاثة عناصر: الارتفاع، (فهو أرفع ما في البناء)، والثاني: السقف، فهو سقف مرتفع، وليس عمودا أو جدارا مرتفعا، وإلا فلا يسمى عرشا. والثالث: التظليل، فهو يظل ما تحته.

وهناك دلالة رابعة، وهي وظيفة العرش، وهذه الدلالة مجازية، فعرش الملك (وهو أرفع شيء في المملكة)، يرتبط بما يمارسه الملك من وظائف مملكته فيه.

٤/ عرش الرحمن:

مما سبق - يتبين لنا أن العرش شيء يسقف المخلوقات كلها، ويظللها، فهو أعلاها، وله علاقة بتدبير الأمر للمخلوقات.

ولعله المراد بقوله تعالى: (وَالسَّقْفَ الْمَرْفُوعِ)، جاء في زاد المسير لابن الجوزي: ("والسقف المرفوع" فيه قولان، أحدهما: أنه السماء، قاله علي رضي الله عنه والجمهور. والثاني: العرش، قاله الربيع)، وفي البحر المحيط: (قال ابن عباس: هو العرش، وهو سقف الجنة)، وقال ابن كثير: (وقال الربيع بن أنس: هو العرش يعني: أنه سقف لجميع المخلوقات). فهو سقف لكل المخلوقات، وهو مرفوع لا شيء من المخلوقات أرفع منه.

وفي القرآن الكريم جاء وصف المرفوع؛ لأعلى المخلوقات التي رفعها الله، وهي: السقف (وَالسَّقْفَ الْمَرْفُوعِ)، وهو العرش الذي هو أرفع المخلوقات. والصحف المكرمة (فِي صُحُفٍ مُكْرَمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ)، وهو اللوح المحفوظ. وكذلك سرر الجنة وفرشها، فالله جعلها مرفوعة (فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ)، (وَفُرُشٌ مَرْفُوعَةٌ)، وهذا يقتضي أنها عالية الارتفاع على ما سواها في الجنة، ويجعل الله أهل الجنة مهينين لبلوغ هذه الارتفاعات. وكل هذه

المرفوعات (العرش واللوح المحفوظ) هي أرفع من السماوات والأرض، وهي خارج مدى السماوات والأرض، فالعرش (على أنه السقف)، واللوح المحفوظ كلها موجودة من قبل خلق السماوات والأرض، والجنة وما فيها يسقفها عرش الرحمن. فحمل السقف على العرش أولى من حمله على السماء.

وعليه فالعرش: ظلّة فوق المخلوقات كلها، استوى عليه الرحمن،
يدبر الأمر.

فآيات والأحاديث السابقة بينت لنا أن العرش: أول المخلوقات وجوداً، وأعظمها وأثقلها وأعلاها وأرفعها، وهو مخلوق عظيم كريم، ويرتبط بوظيفة (تدبير الأمر)، وسأتحدث عن هذا الأمر لاحقاً.

المطلب الثالث: الكرسي

وأما الكرسي فقد ورد في أعظم آية في القرآن، وهي قوله تعالى: (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ). والآية تتحدث عن قيومية الله سبحانه وتعالى، فهو يحيط بخلقه إحاطة مطلقة كاملة، بينما خلقه ليس لهم من الإحاطة بشيء من علمه إلا بما شاء. والسؤال الآن: إلى أين يعود الضمير في قوله (ولا يؤوده)؟

١/ دلالة آية الكرسي:

بتدبر الآية نجد أنها تنقسم قسمين، القسم الأول من أولها إلى قوله (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)، وهذا القسم يتحدث عن قيومية الله سبحانه. والقسم الثاني قوله تعالى: (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) إلى آخرها، وفيه يتحدث عن كرسيه العظيم الذي وسع السماوات والأرض، وبالرغم من ذلك فإنه لا يثقله (أي: لا يثقل الكرسي) حفظ السماوات والأرض. فالله قيوم على خلقه، فهو محيط بخلقه، وكرسيه محيط بالسماوات والأرض يحفظها بأمر الله.

وبالنسبة إلى القسم الأول من الآية، فهو يتحدث عن قيوميته سبحانه، فهو الحي القيوم، وقيوميته تتمثل في: الحياة الكاملة له (الحي الذي لا يموت، هو الأول والآخر)، فهو الحي الذي يهب الحياة لما شاء من خلقه، ويأخذها ممن شاء من خلقه، (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)، وأما الخلق فيحييهم ربهم ويميتهم. وتتمثل ثانيا في: حفظه لخلقه، فهو لا يغفل عنهم، ولا تأخذه سنة ولا نوم، فهو الحفيظ الرقيب الذي لا يغفل ولا ينعس ولا ينام، يدبر الأمر بحفظه. وتتمثل ثالثا في: ملكه المطلق (له ما في السماوات وما في الأرض)، فماذا بقي للملوك سواه (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ). وتتمثل رابعا في: قهره وكبريائه، فلا أحد يجروا على أن يتقدم بين يديه بشفاعه إلا بإذنه. وتتمثل خامسا في: علمه المطلق بخلقه، فهو (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ). فهذه الخمسة الأمور تمثل أركان قيوميته المطلقة: الحياة، والحفظ، والملك، والقهر، والعلم.

وقد ذكر (القيوم) في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم، آية الكرسي، وأول آل عمران، وفي سورة طه، وقد اقترن في كلها بصفة الحياة (الحي القيوم)، فهي أدل الصفات على قيوميته، وفي سورة طه اقترن أيضا بصفة الكبرياء والعلم، قال تعالى: (يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ

وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ، ولم يرد نفي إحاطة الخلق بشيء من علمه إلا بما شاء إلا في موضعين: آية الكرسي، وسورة طه، وكلاهما مقترنان مع قيوميته سبحانه وتعالى. ولعلنا بذلك ندرك بعضا من أسرار هذه الآية، وكونها أعظم آية في القرآن الكريم.

أما القسم الثاني من الآية فيتحدث عن الكرسي، وقد بين لنا أمرين بشأنه، هما: سعته، ووظيفته.

الأول: أنه وسع السماوات والأرض؛ والآية صريحة في أن الكرسي وسع السماوات والأرض، فهو محيط بهما، جاء في لسان العرب: (الواسع: المحيط بكل شيء)، وقد فهم السدي ذلك فقال - كما نقل عنه الطبري: "السماوات والأرض في جوف الكرسي"، فقلوه (في جوف) يدل على أنه فهم أن إحاطة الكرسي بالسماوات والأرض كإحاطة الدائرة بما داخلها.

والأمر الثاني أن الكرسي لا يثقله حفظ السماوات والأرض، وقد فهم بعض المفسرين أن الضمير في (يؤوده) عائد على الكرسي، فقد قال بذلك الزجاج، وذكر احتمالية عود الضمير إلى الكرسي أكثر من مفسر، كمكي بن أبي طالب، والعز بن عبد السلام. وهو الأنسب - كما يبدو لي؛ فهو أقرب مذكور، وحتى يتسق الكلام، فالسماوات والأرض ذكرت في الآية مع الكرسي، فكان اتساق النظم أن يرجع الضمير في (يؤوده) إليه حيث

ذكرتا معه. كما أن ذكر الكرسي (المرّة الوحيدة في القرآن الكريم) في هذا الموطن يفيد أن له صلة بالسموات والأرض، وليس مجرد أنه وسعها. كما أن ترتيب النظم يفيد ذلك، وإلا قال: ولا يؤوده حفظ السموات والأرض وسعهما كرسيه. لكن المعنى سيختل؛ فترتيب النظم دال على اعتبار (الكرسي) في حفظهما.

ويدل على ذلك أن الآية تتحدث عن قيومية الله على خلقه، والقيومية هي الحفظ، فالله حفيظ على كل شيء، وبينت لنا الآية أنه جعل الكرسي حافظا للسموات والأرض، فلا يؤوده حفظهما.

وعليه فلعل المراد والله أعلم بمراده أن الله قد أودع في الكرسي من السنن والأمر ما يجعله يحفظ السموات والأرض، ونحن لا ندري بهذه السنن والقوى المودعة فيه، بل نقول أنها من أمر الله سبحانه وتعالى.

٢/ الدلالة اللغوية للكرسي:

مادة (ك رس)، في المعاجم العربية كما يلي: انظر: العين، وشمس العلوم، ولسان العرب، وتاج العروس]

الْكِرْسُ: كِرْسُ البِنَاءِ: أصله الصلْبُ الذي يبنى عليه. وَتَكَرَّسَ أُسُّ البِنَاءِ: صَلَبٌ وَاشْتَدَّ.... وَالْكِرْسُ، بِالْكَسْرِ: أَبْوَالُ الإِبِلِ وَالغَنَمِ وَأَبْعَارُهَا يَتَلَبَّدُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الدَّارِ، فيسمى كِرس الحوض: حيث تقف الدواب

فيتلبد، ويشتد. كما يطلق على الطين المتلبد: كرس.... والكرس من أكراس القلائد. يقال: قلادة ذات كرسين، وذات أكراس ثلاثة، إذا ضمنت بعضها إلى بعض. ونظّم مكرس ومُتكرس: بعضه فوق بعض. وكل ما جعل بعضه فوق بعض، فقد كرس وتكرس هو. وكرس الرجل: إذا ازدحم علمه على قلبه؛ والكراسة من الكتب سميت بذلك لتكرسها. والتكريس: ضم الشيء بعضه إلى بعض.... والكرّوس، بتشديد الواو: الضخم من كل شيء، وقيل: الشديد. وقيل: هو العظيم الرأس والكاهل مع صلابة، يقال: رجل كروّس، أي: شديد الرأس والكاهل في جسم.

وقال الزجاج: (الذي نعرفه من الكرسي في اللغة: الشيء الذي يعتمد ويجلس عليه، فهذا يدل على أن الكرسي عظيم دونه السموات والأرض. والكرسي في اللغة والكراسة إنما هو الشيء الذي قد ثبت ولزم بعضه بعضا. وقال قوم: كرسية: قدرته التي بها يمسك السموات والأرض. قالوا: وهذا كقولك: اجعل لهذا الحائط كرسيا أي اجعل له ما يعتمده ويمسكه، وهذا قريب من قول ابن عباس [حيث روي عنه أنه فسر الكرسي بالعلم، لأن علمه الذي وسع السموات والأرض لا يخرج من هذا، والله أعلم بحقيقة الكرسي، إلا أن جملة أمر عظيم من أمر الله جل وعز).

والخلاصة أن الكرّس في لغة العرب يدل على أربعة معاني: الأساس الصلب الشديد للبناء، والشيء الثابت الذي يُعتمد عليه، وانضمام الشيء بعضه إلى بعض، والصلابة والشدة والضخامة.

وهذه المعاني واضحة في الكرسي الذي يحفظ السماوات والأرض، فهو أس البناء (والسماوات والأرض بناء)، والأس هو الشيء الثابت الذي يحفظ البناء، حيث تعتمد عليه السماوات والأرض في قيامها، والكرسي يضم السماوات والأرض بعضها إلى بعض (فهو يمسكهما أن تزولا)، ولا يقوم بهذه الأمور إلا كرسي شديد عظيم، والله تعالى قد قال عن السماوات التي تقوم عليها أنه مبنية بناء شديدا (وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا)، فكيف بالكرسي الذي يحفظها.

وآية الكرسي هي أعظم آية في القرآن الكريم - كما ورد عن المصطفى - صلى الله عليه وسلم، فهي تبين لنا عظمة ربنا وقيوميته وإحاطته بما خلق، ومن خلقه الكرسي الذي وسع السماوات والأرض وأودع فيه سنن حفظهما بأمره، فالله يحفظ الكرسي، وقال بعض المفسرين: (إذا كان الكرسي لا يثقل عليه حفظ السماوات والأرض فما بالناس بصاحب الكرسي). ولعل هذا يفسر قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)، ونلاحظ أن الضمير جاء بالتثنية (تزولا، أمسكهما)، كما جاء بالتثنية في

آية الكرسي (حفظهما). وهو الأمر الوارد في قوله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ).

٣ / (وهو العلي العظيم) وصف للكرسي:

فآية الكرسي إذن بينت لنا سعة الكرسي والتي تتضمن شكله أيضا (محيط)، وتبين لنا وظيفته. كما وصف الكرسي بأنه علي عظيم، (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ). فالضمير (وهو) يعود إلى الكرسي، لوالمفسرون يرون أنه يرجع إلى لفظ الجلالة، وأرى أن الأنسب عودته إلى الكرسي، فالكرسي الذي وسع السماوات والأرض، ولا يثقله حفظهما، وهو العلي (فله العلو على السماوات والأرض)، وهو العظيم (وهو الكرسي الذي له العظمة)، فهو أعلى من السماوات وأعظم منها، وهما صفتان يناسبان ما ذكر عن الكرسي، فكونه أو سع من السماوات والأرض يقتضي أنه أعلى منهما، وكونها يحفظهما، يقتضي أنه أعظم منهما.

ويؤيد ما أذهب إليه أن لفظ (العظيم) وردت في القرآن الكريم: ١٠٧ مرة [٣٦ مرة معرفة: العظيم، و٧١ مرة نكرة: عظيم]، وكلها جاءت أوصافاً لغير الله سبحانه وتعالى إباحثثناء آيتين فقط، الأولى في الشورى: (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)، والثانية في الحاقة: (إِنَّهُ كَانَ لَأَيُّمُنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ). أما بقية المواضع كلها فكانت وصفا لغير الله، فمما وصف بها: الفضل، الفوز، الخزي، العرش، القرآن، الكرب، اسم ربك،

النبأ. وأما النكرة (عظيم) فكلها جاءت وصفا لغير الله سبحانه وتعالى. وفي آية الكرسي فإن احتمال أن يكون الوصف للكرسي واردا، ومن الأولى حملة على ذلك؛ فالمعنى لا يرده، واستعمال القرآن الكريم للفظ يؤيده.

وأما لفظ (العلي)، فقد ورد ست مرات، مرتين (الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)، وأربع مرات (الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ). وأما النكرة (علي) فقد ورد لله مرة (سورة الشورى)، وورد لغيره، فوصف به القرآن الكريم (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ)، ووصف به المكان الذي رفع الله إليه إدريس (وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيْسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا).

وهنا سؤال: لماذا قال (وسع كرسيه السماوات والأرض)، ولم يقل:

أحاط، مثلا؟

قال تعالى (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)، فالله يوسع بناء السماء. فكان لفظ السعة أولى وأنسب بالسماوات والأرض، وأدل على اتساع السماوات باستمرار. فلفظ (وسع) يدل على الإحاطة مهما كانت الزيادة في السعة، أما لفظ الإحاطة فيدل على الإحاطة الثابتة، دون السعة المستمرة. وبذلك دل لفظ (وسع) على هيئة الكرسي (محيط)، وعلى أنه يحيط به مهما زادت في اتساعها. والله أعلى وأعلم.

٤ / علاقة الكرسي بالعرش

والسؤال الآخر: ما علاقة الكرسي بالعرش؟

لم ترد آية في القرآن الكريم تتحدث عن هذه العلاقة - حسب فهمنا -، وقد جاء في السنة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة"^١.

فالحديث يبين لنا أن الكرسي هو شيء محيط بالسموات، ومثله إلى العرش كمثل السموات إليه. فلعل العرش محيط به كإحاطته بالسموات، والرحمن على العرش استوى.

وفي البخاري (إذا سألتهم الله فسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن)، وقد فهم بعض السلف من الحديث أن العرش مستدير، قال: الأوسط لا يكون الأعلى إلا في المستدير.

والآية صريحة في أن كرسي الله وسع السموات والأرض، فهو محيط بها، وقد فهم السدي ذلك فقال - كما نقل عنه الطبري:

^١ قال الألباني: الحديث صحيح بطرقه. واعلم أنه لا يصح في صفة الكرسي غير هذا الحديث، كما في بعض الروايات أنه موضع القدمين. وأن له أطيظاً كأطيظ الرجل الجديد، وأنه يحمله أربعة أملاك، لكل ملك أربعة وجوه، وأقدامهم في الصخرة التي تحت الأرض السابعة... إلخ، فهذا كله لا يصح مرفوعاً عن النبي صلى الله عليه وسلم، وبعضه أشد ضعفاً من بعض.

"السموات والأرض في جوف الكرسي"، فقولته (في جوف) يدل على أنه فهم أن إحاطة الكرسي بالسموات والأرض كإحاطة الدائرة بما داخلها. ويؤيد هذا الرواية الأخرى للحديث: (ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ثُرس)، والترس تطلقه العرب على القرص المستدير، وبه سمي الترس (السلح)، و(ترس الباب).

والخلاصة التي يمكن لنا أن نقولها في العرش: العرش كان على الماء، من قبل خلق السموات والأرض، وأن الله خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش. والعرش أعظم من السموات السبع، ووصفه الله بأنه عرش عظيم كريم. والعرش أعلى المخلوقات، وهناك من الملائكة من يحمل العرش، وهناك من يحف به. وأما الكرسي فقد وسع السموات والأرض. هذا ما أخبرنا به القرآن الكريم، ولا نستطيع القول وراء ذلك.

وأما الكرسي فنقول أنه شيء خلقه الله محيط بالسموات والأرض، يحفظها بأمر الله، ومثله إلى العرش كمثل السموات السبع إليه. والله أعلم.

المبحث الثالث: المرحلة الأولى: خلق السماوات والأرض

المرحلة الأولى بالنسبة للسماوات والأرض، هي الخلق، والمرحلة الثانية: التسوية، والمرحلة الثالثة: التدبير.

المطلب الأول: خلق/ فطر السماوات والأرض

أولاً: خلق السماوات والأرض وما فيهما

يقرر القرآن الكريم أن كل شيء خلقه الله، قال تعالى: (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ). والسماوات والأرض هما من الأشياء التي خلقها الله سبحانه وتعالى.

والمتتبع لآيات القرآن الكريم عن (خلق السماوات والأرض)، يجد أن كل الآيات التي تحدثت عن الخلق اقترنت بالسماوات (جمعاً) والأرض، في (٣٦ موضعاً)، وكذلك عند الحديث عن (فاطر السماوات والأرض) في (٧ مواضع). وهذا يدل على أن خلق السماوات والأرض كلها تمت في المرحلة الأولى، وهي مرحلة الخلق، فكانتا رتقا، كما قال تعالى، وما تم بعد ذلك إنما هو التسوية.

ولم يقترن لفظ الخلق مع (السماوات) إلا في موضعين، هما قوله تعالى: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)، وقوله تعالى: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ

وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَاتَّخَذْنَا مِنْهُ لُذُنًّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ). وكلا الموضعين يتحدثان عن خلقهما بالحق والحكمة، وليس باطلا، ولا يتحدثان عن الخلق كمرحلة.

وقد ذكر القرآن الكريم لفظ (السموات) في بداية الخلق ونهايته مرتين، مرة في بداية الخلق وهو قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا). ومرة في نهاية الخلق، قال تعالى: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ). اوسأتحدث عن التي في نهاية الخلق لاحقا].

ويتساءل كثيرون: كيف يتحدث القرآن الكريم عن أن السموات والأرض كانتا رتقا، وما توصل إليه العلماء اليوم يتحدث عن سماء لا عن سموات. ولذلك تجد تأويلات كثيرة في الآية، كالقول بأنه أطلق السموات وأراد السماء، ... الخ.

غير أن هذه الآية دليل واضح غاية الوضوح أن الله خلق السموات والأرض، فهو لا يتحدث عن: السماء، وإلا قال: السماء. وهذا يثبت أن خلق السموات والأرض تم أول الخلق، فكانتا رتقا. وما تم بعد ذلك فإنما هو تسوية السموات السبع، وليس خلقها، بدليل أن القرآن الكريم حين فصل

المراحل في سورتي البقرة وفصلت استخدم لفظ (فسواهن)، (ففضاهن)، ولم يقل: فخلقهن؛ إذ هما قد خلقتا من قبل.

وهذا دليل قوي يؤكد ما ذهب إليه من أن خلق السماوات والأرض تم في المرحلة الأولى، وهي مرحلة الخلق.

وسأبين لاحقا أن الله خلق ما في السماوات والأرض في مرحلة الرشق، قبل أن يفتقهما، كما تدل على ذلك الآيات، وكما يدل عليه استخدام القرآن الكريم لألفاظ: خلق، وجعل، وسوى... مع السماء والأرض. ومما يدل على أن خلق السماوات والأرض وما فيهما كان في مرحلة الرشق، هو دلالة الرشق، كما سأبينه بعد قليل، فهو التثام بين شيئين، بمعنى أن كل شيء منهما له وجود مستقل عن الآخر.

فمرحلة الرشق تم فيها الخلق كله، ثم في مرحلة التسوية كان إتمام الخلق، بعد الفتق.

والخلاصة أن الله خلق السماوات والأرض فكانتا رتقا.

ثانياً: فطر السماوات والأرض:

قال تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)، وقال: (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا).

لم يأت (فطر) في القرآن الكريم مقترنا إلا بالسماوات والأرض (فاطر السماوات والأرض، فطر السماوات والأرض)، أو بالإنسان (فطرتني، فطرتنا، فطركم). وقد جاء (فاطر السماوات والأرض): ٦ مرات، ولم يقترن (فاطر) بغيرها، والفاعل (فطر): ٧ مرات، (مرتان: مع السماوات والأرض)، (٤ مع الإنسان متحدثا عن نفسه: فطرتني، فطرتنا)، (ومرة مع الإنسان يخاطبه الله: فطركم). وجاء الفعل (فطر على) مقترنا بالناس: (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا).

والفَطْر، كما قررته في بحث الخلق، هو: (البدء في خلق الشيء، مزودا بنظام قابلية الفطرة). أما الخلق، فهو: (الإنشاء الأول للشيء، في طور ما). وهناك شرحت دلالة التعريف.

ف(الفَطْر) يطلق على البدء في خلق الشيء، بخلاف الخلق، فهو يطلق على الخلق الجديد للشيء في كل طور من أطواره، كما بينته في بحثي: الخلق. فمعنى: فطر السماوات والأرض، أي: بدأ في خلقهن أول مرة، قال تعالى: (فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)، أي بدأ خلقكم أول مرة. وعليه يأتي بيان المراحل والأطوار مع (الخلق)، ولذلك

تجد القرآن الكريم يتحدث عن خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ولا يصح أن أقول: فطر الله السماوات والأرض في ستة أيام، بل: فطر الله السماوات والأرض، فهو ينصرف إلى بدء خلقها أول مرة.

كما أن الفطر يرتبط بالفطرة، وقد شرحت في بحث: الخلق، العلاقة بين الفطر والفطرة، وأن الفطر هو خلق الشيء مزوداً بنظام قابلية الفطرة، وهذه هي المرحلة الأولى. فالسماوات والأرض والإنسان كلها فطرها الله، أي خلق نظام قابلية الفطرة فيها. فليس كل مخلوق مفطور، فالفطر شيء أخص من الخلق. وما فطره الله من خلقه هو السماوات والأرض والجبال والإنسان، ولم ينص على الجبال، إلا أن عرض الأمانة عليه يبين ذلك.

والمرحلة الثانية هي عرض الأمانة على تلك المفطورات، قال تعالى: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا). فهذه المخلوقات هي المخلوقات التي (فطرها) الله. والأمانة لن تعرض إلا على مخلوق لديه القابلية لأخذها أو تركها، أو بعبارة أخرى: لديه القابلية للاختيار، إن شاء أخذ وإن شاء ترك.

ثم كانت المرحلة الثالثة، وهي مرحلة إنشاء الفطرة في الإنسان حين قبل الأمانة، قال تعالى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي

فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَأَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ). فلما حمل الإنسان الأمانة تحول "نظام قابلية الفطرة" إلى "نظام الفِطْرَة"، ففطر الله الناس على هذه الفِطْرَة. وأصبحت "فطرة الله" خاصة بالإنسان، فلم يفطر شيئاً من خلقه عليها سوى الإنسان.

ثم سوى الله السماوات والأرض وما فيهما، وما بينهما، لتكون مسخرة للإنسان الذي حمل الأمانة، وزوده الله بنظام الفطرة. فكل شيء هينٌ ليكون صالحاً لمعاش الإنسان. ولو أن السماوات والأرض اختارتا الأمانة لما كان نظام الخلق على هذه الحال، ولكان على حال يناسب من يستخلفه الله فيهن. قال تعالى: (وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ).

ثالثاً: أصل السماوات والأرض:

في بحثي: الخلق، بينت أن القرآن الكريم يستخدم تركيبين في حديثه عن الخلق، الأول: خَلَقَ الشيءَ، والثاني: خَلَقَ شيئاً من شيء، كخلق الإنسان من طين، وخلق الجان من نار، وخلق كل دابة من ماء. فهذه لها أصول سابقة منها خلقت، ومن ثم فالماء والتراب والنار أصول سابقة، فمم خلقت السماوات والأرض؟

بينت في بحثي عن الخلق والتسوية أنه لم يرد في القرآن الكريم دليل يبين لنا: هل خلقت السماوات والأرض من شيء أو من غير شيء؟

لا نستطيع القول بأن دلالة (خلق) تستلزم الخلق من شيء، فهذا لم يطرد في القرآن الكريم، وقد ورد خلق السماوات والأرض في ٣٦ موضعاً، لم يقترن قطّ ب(من)، كما اقترن مع خلق الإنسان وغيره. وقصارى القول أن لفظ (خَلَقَ) يدل غالباً على أن الشيء خلق من شيء آخر.

ومن ثم فالسماوات والأرض قد يكونان خُلِقا من شيء آخر، وقد لا يكونان كذلك. وليس في القرآن الكريم دلالة على أحدهما.

وهناك أقاويل شتى في الشيء الذي خلقت منه السماء، فقال بعضهم من الماء، وقال بعضهم: من دخان الماء. ولا دليل على هذه الأقوال.

ومن الخطأ القول بأنهما خلقتا من الرتق، فالرتق حالة اتصال
تقابلها الفتق وهي حالة انفصال، وليس مادة، كالتراب، وهو توهم،
فالقُرآن قال (كانتا رتقا) ولم يقل خلقتا من الرتق. فالله خلقهما فكانتا
رتقا، حتى فتقهما.

وراجع كتابي (من أفعال الخلق - دراسة معجمية وموضوعية)،
وما ورد في الحديث عن الماء والتراب.

المطلب الثاني: كانتا رتقا ففتقناهما

قال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا).

ذكر القرآن الكريم لفظ (السموات) في بداية الخلق ونهايته مرتين، مرة في بداية الخلق وهو قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا). ومرة في نهاية الخلق، قال تعالى: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ). لوسأتحدث عن التي في نهاية الخلق لاحقاً. وهذا عدا عن ذكرها باطراد مع الخلق، كما أشرت إليه.

فأما التي في بداية الخلق فإنه يتحدث عن السموات المخلوقة، والتي كانت في رحم السماء الأولية، قبل أن يسويها الله سبع سماوات. وهذه الآية تعادل الآية التي تحدثت عن نهاية السموات، حيث تطوى فتعود سماء واحدة.

وتبين الآية أن الله خلق السموات والأرض فكانتا رتقا، فما الرتق؟

ثم فتقهما، فما الفتق؟

تحدثت في كتابي: (من أفعال الخلق دراسة معجمية موضوعية) عن دلالة الفتق والرتق. وسأكتفي هنا بملخص ما ذكرته هناك.

أولاً: الرتق

الدلالة الدقيقة للفظ (الرتق)، تبين أنهما كانتا: ملتصقتين التصاقاً تاماً، قال ابن كثير: بعضه متراكم فوق بعض، وقال البقاعي: زبدة واحدة.

وعليه فالرتق هو حالة وليس مادة، كما توهم بعض المعاصرين، وقالوا بأن السماوات والأرض خلقتا من كتلة الرتق، والله لم يقل ذلك، بل قال: (كانتا رتقا ففتقناهما)، أي كانتا في حالة الرتق، وهي الالتئام الشديد، ففتقتهما الله: فصلهما. فقابل بين الحالتين: الرتق والفتق. وأما خلق السماوات والأرض فلم يذكر لنا القرآن مِم خلقتا، وهل خلقتا من شيء أو من غير شيء. وما أقوله هنا أن الله خلق السماوات والأرض كلها فكانتا رتقا، ثم فتقهما الله.

وهذا يعني أن السماوات والأرض كانتا معا في جرم واحد، ملتصقتين، متصلتين، ولم تحدد الآية حجم الجرم، وإنما حددت طبيعته (رتقا)، غير أن ذكر لفظ (السماوات) يفيد ضالة حجم الجرم إلى حد لا يمكن تصويره، فالسماوات كانت في رحم السماء الأولية (لم تسوّ بعد)، وهذا يعني أن المدى الذي تسوّت إليه السماء الأولية فأصبحت سبع سماوات هو

مدى هائل، كما أن الحجم الذي كانت فيه السماء الأولية والأرض ضئيل جدا، ذلك الحجم هو الذي أصبح السموات والأرض، وضآلة ما كان عليه إلى ما أصبح عليه كضآلة السماء بالنسبة للسموات. ولعل هذا يكشف عن سر ذكر لفظ (السموات) بصيغة الجمع.

ويؤيد هذا قوله تعالى (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)، فثمة إيساع، وإيساع الشيء يدل على أن جرمه كان أصغر وأضيق، فهو يتوسع رويدا رويدا.

كما يدل مفهوم الرثق، على أن الشيء كان بحالة لا يستفاد منها، فالرتقاء هي التي لا يستطيع الذكر وطأها؛ لانضمام فرجها. وهذا ما فهمه أهل التفسير حين قالوا أن السماء كانت رتقا لا تمطر، والأرض رتقا لا تنبت. وهو فهم صحيح، غير أن دلالته لا تقتصر على هذا، بل دلالته أن السموات والأرض في حالة الرثق لم تكن مهيئة لحياة الكائنات عليها، وما خلقت الكائنات الحية إلا بعد الفتق، ولعل هذا ما يفسر قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا)، فذكر الحياة بعد الفتق.

ثانياً: الفتق

من النصوص اللغوية [راجع كتاب: من أفعال الخلق] يتبين أن (فتق) يتميز بثلاث دلالات تبين ثلاثة أمور: الأول: طبيعة الشيء المفتوق، والثاني: طبيعة الفتق نفسه، والثالث: بم يكون الفتق؟

أ: الشيء المفتوق

الشيء المفتوق قد يكون شيئاً واحداً، وقد يكونان شيئين التحما فأصبحا في حكم الشيء الواحد. خلافا لما ذكره العسكري من أن الفتق لا يكون إلا بين شيئين، فالنصوص التي في المعاجم اللغوية، تبين أن الفتق يكون للشيء الواحد أو للشيئين، بل إن الشيء الواحد هو الأصل في إيقاع الفتق عليه، ويحمل عليه الشيطان إذا اتصلا واستويا وأصبحا في حكم الشيء الواحد.

ثم إن الشيء المفتوق، يكون في إحدى حالتين، أو فيهما معا:

(١) الحالة الأولى: أن يكون شديد الالتئام، إذا كانا شيئين، فيكون التئامهما شديداً كما لو كانا شيئاً واحداً، والشيء الواحد يكون متصلاً مستويا، كالثوب.

وقد يكون التئامه أشبه بالنسيج (الليف)، والشق الذي يكون فتقا، يشبه حالة تشقق النسيج، ولذلك سمت العرب: الليف بالفتاق،

حيث يتشقق تدريجياً، ويتسع الشق اتساعاً كبيراً. فيكون الفتق تشقيقاً له، كما تشقق النسيج.

(٢) الحالة الثانية: أن يكون شديد الامتلاء، فالفتق لا يكون إلا إثر امتلاء مفرط، فالشيء إذا امتلأ حتى بلغ غاية الامتلاء، ثم بدأ يتشقق، فهذا هو الفتق. كفتق المثانة بعد امتلائها، أو فتق الجمل بعد سمته، أو فتق العجين بعد انتفاخه.

ب: طبيعة الفتق:

أما الفتق فهو: شق متدرج، يبدأ بإحداث فرجة ضيقة، تتسع شيئاً فشيئاً، حتى تصبح شديدة الاتساع.

وعليه فبداية الفتق يكون بالتشقق، وهو لا يكون إلا عن حالة الامتلاء الشديد، فيبدأ يتشقق شيئاً فشيئاً، فهو ليس فصلاً يتم مرة واحدة، بل هو انشقاق تدريجي يتم شيئاً فشيئاً. وكما ينفق الفجر من الليل، فهو لا يظهر فجأة، بل يبدو تدريجياً، فيتسع ضوء الفجر، وتضييق الظلمة، شيئاً فشيئاً، حتى يصبح الفتق واسعاً شديد الاتساع.

ثم حين يأخذ الفتق مداً، فإنه يصبح واسعاً شديد الاتساع، وتتصدع بنيته الأساسية، حتى تختفي المعالم الأولى للشيء المفتوق.

كما أن الفتق يختص بحالة نقض عرى الشيء الملتئم، فهو ليس مجرد تفريق عشوائي، بل عادة ما يكون نقضا لما تم حبكه، أو فتقا لما تم رتقه، وهذا يشبه تشقيق النسيج، أو نقض خياطة الثوب.

ج: بم يكون الفتق؟

ورد فعل الفتق في اللغة العربية، على وجهين: (فتق، وفتق ب)، الأول نحو: فتقت الثوب، والثاني: نحو فتقت المسك بالعنبر، أو فتق العقول بمعرفته..

والفتق إذا كان لشيء شديد الالتئام، كالثوب، فلا يؤتى بالباء؛ لأن الفتق يتعلق بالنقض، فتقول: فتقت الثوب، أما إذا كان لشيء شديد الامتلاء، فيتعلق غالبا بالباء، نحو: فتقت العجين، وتفتق بالشحم... الخ.



ثالثاً: بيان الآية (كانتا رتقا ففتقناهما):

قوله (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا)،

(كانتا رتقا)، أي: كانتا ملتحمتين واتسمتا بثلاث خصائص:

الأولى: شدة الالتئام بينهما، كأنهما شيء واحد،

والثانية: شدة الامتلاء، وهذا يشير إلى الكثافة الهائلة للجرم الصغير الذي حوى السماوات والأرض، فهو جرم ممتلئ بهما.

والثالثة: الحالة النسيجية لهذا الجرم. فهو شيء ملتئم ممتلئ محبوبك شديد الحبك.

(ففتقناهما)، أي: شققنا ذلك الجرم، كما يشق النسيج، وهذا الشق بدأ بفرجة تتسع شيئاً فشيئاً، حتى أصبحت شديدة الاتساع. (وإننا لموسعون). وفتقهما أشبه بنقض عرى الشيء المحبوك، بتوسيعها والتفريق بينها، وتباعدها باستمرار، كما تتباعد خيوط الثوب المشقق، بعد أن كانت شديدة التماسك والتقارب (في حالة الرتق).

ودلالة الفتق الدقيقة: لراجع كتابي: من أفعال الخلق]

شَقَّ متدرج، يبدأ بإحداثا فرجة ضيقة، تتسع شيئاً فشيئاً، حتى تصبح شديدة الاتساع.

(بم فتقتا ٩):

قال الزجاج: فتقهما الله بالهواء، وقال ابن عباس: فتق السماء بالمطر، والأرض بالنبات. وقال كعب: خلق الله السموات والأرض ملتصقتين ثم خلق ريحا توسطتهما ففتقهما بها، ونقل الرازي عن بعضهم: فتقهما الله بإظهار النهار المبصر.

وإذا عدنا إلى الدلالة اللغوية، فنسجد أن الشيء الممتلئ يفتق بما امتلأ به، حيث إنه لشدة امتلائه يبدأ بالتشقق، وكأن ما داخله بحث له عن مدى أوسع، بعد أن ضاق به حاله الأول. وكذلك السماوات والأرض، خلقهما الله وخلق ما فيهما، وكانتا رتقا، وكان الجرم الذي هما فيه ممتلئ بهما وبالمخلوقات التي فيهما، ففتق الله ذلك الجرم، فأخذ ما كان فيه بالتوسع والامتداد. فالله فتقهما بما امتلأ به من خلق، وبعد الفتق بدأ كل جرم يكبر ويتسع، ويتباعد عن الأجرام الأخرى، وما بينهما مخلوقات خلقها الله، وليست فراغا، كما قال تعالى: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا).

وبهذا نعلم أن السماوات والأرض كانتا معا في الرتق، ولا نعلم ضآلة حجم الجرم الذي كانتا فيه، ولا نعلم نسبة ضآلة الأرض وهي في ذلك الجرم إلى السماء، وحين يتحدث العلماء اليوم أن الأرض خلقت بعد السماء، فإنما يتحدثون بحسب علمهم، وحسب ما توصلت إليه آخر التطورات الممكنة، وقد يأتي غدا بأجهزة أكثر تطورا ودقة، فتكون أدق في تحديداتها، وفي أحكامها، وهكذا تتطور علوم البشرية باستمرار. وما أقوله هنا أن الأرض كانت بحجم من الضآلة لا يمكن حتى الآن تصويره، فتخلقت هي والسماء في رحم واحدة، وانفتقا، واستمر تخلقها وتخلق ما فيها، ونمت حتى أصبحت بالحجم الذي رصدته أجهزة البشرية لأول مرة. والله أعلى وأعلم.

المطلب الثالث: مدة الخلق

أخبرنا الحق سبحانه وتعالى أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ونحن لا نعرف الحقيقة الزمنية لهذه الأيام ولا مداها الزمني. وهو يخبرنا دائماً عن المدة مقترنة بلفظ (السماوات)؛ إذ تشمل مرحلة خلق السماء ومرحلة تسوية السماوات. قال تعالى: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ)، وقال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)، وقال تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ)، وقال تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ).

وقد تحدث القرآن الكريم عن النسبية الزمانية، حيث تختلف دلالات اليوم زمانياً، فيوم كيوم من أيامنا، ويوم كالف سنة، ويوم كخمسين ألف سنة، ويوم لا نعرف مداه... إلخ. قال تعالى: (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)، وقال تعالى: (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)، وقال تعالى: (تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ). ومن غير الصحيح تفسير الأيام الستة بست مراحل، فلا دليل على ذلك، ثم تسوية السماوات السبع كان في

الأيام الستة، والبشر لا يعلمون عنها (بعلومهم الفلكية) شيئاً. والصحيح أن نقول أنها أيام ستة استغرقت خلق السماء وبنائها، والأرض وبسطها، وتسوية السماوات السبع، ولا نعلم عن طبيعتها شيئاً، ولا يصح أن نقول أنها تعادل ستة آلاف سنة أرضية، فهذا قول بلا علم.

المطلب الرابع: ترتيب الخلق

أولاً: آيات ترتيب الخلق:

جاء الحديث عن ترتيب الخلق في موضعين، وهي:

الموضع الأول في سورة فصلت، قال تعالى: (قُلْ أَنتَكُم مَّنْ كَفَرْتُمْ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)).

والموضع الثاني في سورة البقرة، في قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)).

ثانياً: دلالة الاستواء:

وفي كلا الموضعين قال (ثم استوى إلى السماء). وقد فسر المفسرون ذلك بالقصد والإقبال، وقال الراغب: بتدبيره، أي: أقبل إلى السماء بتدبيره.

غير أن دلالة الاستواء عموماً (كما بينت ذلك في بحث: سوى في القرآن الكريم) هي الانتقال إلى حالة لاحقة مثال من حالة سابقة مباينة. والمجيء بـ(إلى)، يحدد مدى الانتقال وقصده، تقول العرب: كان زيد مقبلاً على زينب، ثم استوى إليّ فشتمني، أي: انتقل إقباله من زينب إليّ، كما يدل على أن إقباله على زينب يختلف عن إقباله عليّ، فحين أقبل عليّ شتمني، وهذا يدل على أنه كان ودوداً مع زينب. فاستخدام الاستواء دل على التباين والانتقال، والمجيء بـ(إلى) دل على الانتهاء، أي انتهى بإقباله عليّ، ولم يقبل على أحد بعدي.

فثمة أربع دلالات في استخدام (استوى إلى)، الأولى: وجود شيئين (حالتين، مرحلتين...)، بينهما تباين، والانتقال من أحدهما إلى الآخر، والانتهاء إليه.

وعليه فقوله (استوى إلى السماء)، يقتضي أن ثمة حالتين للفاعل، وأن الحالتين مختلفتان، وأن ما قبل الاستواء كانت حالة، وما بعده حالة أخرى، وأنه بالاستواء إلى السماء: انتهى بإقباله إليها.

فما الحالتان المختلفتان؟

تطرد آيات القرآن الكريم في بيان أن الخلق مرحلة والتسوية مرحلة أخرى، (راجع بحثي: سوى في القرآن الكريم)، قال تعالى: (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)، وهذا حديث عام عن سنتي: الخلق والتسوية، وقال تعالى (ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى) يتحدث عن مرحلة التسوية في الإنسان بعد الخلق...

وقد اطردت آيات القرآن الكريم ببيان أن الله (خلق السماوات والأرض)، فالخلق هو البدء، وفي سورة الأنبياء: (أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا)، فهي تبين أن السماوات والأرض التي خلقها الله كانتا رتقا، خلقهما الله فكانتا رتقا. فهذه هي المرحلة الأولى، خلق الله فيها السماوات والأرض، وخلق ما فيهما، وهما لا زالتا في مرحلة الرتق.

والذي تم في المرحلة الثانية (التسوية)، أي: إتمام الخلق وفق ما قدر له أن يكون. وقد بدأت المرحلة الثانية بتحول السماء إلى دخان، وهو قوله (ثم استوى إلى السماء وهي دخان)، ثم سوى السماء ودحا الأرض، وسوى السماوات السبع.

ومن ثم فالفعل الإلهي في المرحلة الأولى هو الخلق، والفعل الإلهي في المرحلة الثانية التي بدأت باستوائه إلى السماء بأمره هو التقدير

والتسوية. فخلق السماوات والأرض، وكانتا رتقا، ففتقهما، ثم استوى إلى
السماء، وسوى ما خلق سبحانه.

ثالثاً: الخلق قبل الفتق:

والدليل على أن الخلق كان قبل الفتق ما يلي:

قوله تعالى (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا)، فهما كانتا مخلوقتين، وما زالتا رتقا، والرتق لا يكون إلا لشيئين موجودين وكل منهما له خصائصه المستقلة عن الآخر، ولا يمكن تصور هذا إلا بتصور أنهما قد خلقتا من قبل، وخلق ما فيهما، وهما لا زالتا رتقا.

ونحن لا نستبعد أن يكون الخلق كله تم في مرحلة الرتق؛ إذ قد يكون خلق الأرض وخلق ما فيها، وهي لا زالت في حجم ضئيل، داخل رحم السماء، كما يتخلق الجنين داخل رحم أمه، ثم ينمو قبل أن يخرج من بطن أمه، وكما تتخلق البذرة وهي في رحم الأرض قبل أن تنبت، وكذلك الأرض تخلقت وتخلق ما فيها وهي لا زالت في رحم السماء، وتخلقت السماء قبل بنائها وإيساعها وتسويتها.

ومما يدل على ذلك أن القرآن الكريم يتحدث في سورة فصلت عن خلق الأرض وخلق ما فيها، قبل أن يستوي إلى السماء وهي دخان، حيث استخدم (ثم) الدالة على الترتيب والترخي (قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءً

لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ، فخلق الأرض وخلق ما فيها قبل الاستواء إلى السماء وهي دخان. وفي البقرة أيضا: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ)، فالدلالة واضحة على أن خلق ما في الأرض جميعا كان قبل الاستواء إلى السماء. وآية البقرة (خلق لكم ما في الأرض جميعا) تبين آية فصلت (وجعل فيها رواسي من فوقها)، ف(جعل) هنا أقرب لمعنى (خلق)، وهذا يختلف عما تم بعد دحو الأرض، كما في سورة النازعات. وسأفصل في دراستي عن الأرض ما تم في الارض في مرحلة الخلق وما تم في مرحلة التسوية.

ولذلك نجد القرآن الكريم في المواطنين حين تحدث عن مراحل الخلق، لم يقل (خلق السماوات)، بل قال (فسواهن)، (فقضاهن)، فالخلق الذي هو الإنشاء الأول كان للسماوات والأرض، وأنشأ فيهما كل شيء، ثم بعد ذلك قصد بأمره إلى السماء وهي دخان، فأخذ ذلك الخلق مداه، فبنى السماء وسواها، ومد الأرض ودحاها... الخ.

ومما يدل على ذلك قوله (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا)، فهو لم يقل: السماء والأرض، والقرآن بين لنا أن السماوات بعد السماء، ولكنه ذكرها بالجمع، فدل هذا على أن السماوات كانت في رحم السماء الدخانية، مثلها مثل الأرض، فكلاهما

كانتا في مرحلة الرتق، حتى أذن الله فضتق السماوات (وهن ما زلن في رحم السماء) عن الأرض، وبعد تسوية السماء، سوى السماوات السبع.

المطلب الخامس: حديث القرآن عن خلق السماوات والأرض:

ببتبع حديث القرآن عن خلق السماوات والأرض، تبين أنه يتحدث عنها في مقامات: الامتنان والإنعام، وبيان القدرة والعظمة والاستدلال على الألوهية أو الربوبية، وبيان أن خلقها كان بالحق. وكذلك في بيان أيام الخلق، وكلها جاءت مجملة، سوى آيتي [البقرة وفصلت] حيث فصل فيهما ذلك. وفي حديثه المفصل عن المراحل (فصلت والبقرة) بين أن مرحلة الخلق أولاً ثم التسوية بعد ذلك.

ولذلك تجد القرآن الكريم حين يتحدث عن السماء بعد ذلك لا يستخدم لفظ (الخلق)، بل: البناء والتسوية والرفع، وجعل فيها بروجاً، وجعل النجوم للهداية، وكذلك الأرض: دحاها ومدھا، وألقى فيها الرواسي، وجعلها سبلاً... الخ، فلفظ (جعل) يغلب مجيؤه في المرحلة الثانية، مع الألفاظ الأخرى الدالة، ويأتي لفظ (خلق) للدلالة على مطلق الخلق. ولذلك لا تجد في القرآن: خلق الله الجبال أو الرواسي، أو الأنهار، أو الأشجار، أو النجوم، أو الظلمات والنور... بل تقترن بألفاظ أخرى، غالباً (جعل)، وغيرها، نحو: ألقى، أنشأ... الخ.

ولم يرد من ذلك إلا: (الليل والنهار والشمس والقمر) في قوله: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)، وفي قوله: (لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ)،

وقوله (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ).
 أما الآية الأولى فقد جاءت في الأنبياء بعد الحديث عن فتق السماوات والأرض. والآية الثانية لبيان أن السجود لا يكون إلا لمن خُلق لا لمن خُلق، والثالثة لبيان أن خلق كل شيء كان بالحق. وورد من ذلك أيضا (الأنعام) فقط من سائر ما على الأرض، والإنسان، والقرآن الكريم يربط بينهما كثيرا، والجان أيضا.

المبحث الرابع: المرحلة الثانية: التسوية

قال تعالى: (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغَطَّشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا).

قال الراغب الأصفهاني: (الاستواء هو اعتدال الشيء في ذاته، كقوله: "فاستوى على سوقه"، وتسوية الشيء جعله سواء لأي مستويا، إما في الرفة أو الضعة).

وجاء في تفسير ابن عطية: (وقوله تعالى: فَسَوَّاهَا، يحتمل أن يريد جعلها ملساء مستوية ليس فيها مرتفع ومنخفض، ويحتمل أن يكون عبارة عن إتقان خلقها ولا يقصد معنى إملاس سطحها).

فأهل التفسير نظروا إلى معنى: كمال الإتقان والإحسان، فكمال الإتقان في البناء، يعني أنه بناء محكم، لا شقوق فيه ولا فروج ولا صدوع، وكمال الحسن في البناء، يقتضي ألا اعوجاج فيه ولا نتوء ولا انكسار.

بل فهم بعضهم منه كروية السماء، فنقل الرازي عن بعضهم قوله: (قوله "فسواها" يدل على كون السماء كرة، لأنه لو لم يكن كرة لكان بعض جوانبه سطحاً، والبعض زاوية، والبعض خطأ، ولكان بعض أجزائه أقرب إلينا، والبعض أبعد، فلا تكون التسوية الحقيقية حاصلة، فوجب أن يكون كرة حتى تكون التسوية الحقيقية حاصلة)؛ وذلك أن الحسن في

البناء المرفوع ينصرف بالذهن إلى الشكل الكروي، فلا يكون البناء خالياً من أي اعوجاج أو نتوء أو انكسار إلا إذا كان كروياً.



إلا أن التحقيق أن تسوية السماء، كما بينته في بحثي: (سوى في القرآن الكريم)، يمثل المرحلة الثانية للخلق.

فتسوية السماء: إتمام خلقها وفقاً لما قُدِّر لها أن تكون، بحيث تأخذ خصائصها التي تميزها عن غيرها. وتسوية السماء هي المرحلة الثانية للخلق، حيث خلق الله السماوات والأرض فكانتا رتقا، ففتقهما الله، وعندئذ استوى إلى السماء وهي دخان، فسواها، حيث أتم خلقها، وفي هذه المرحلة تميزت عن الأرض، وأخذت خصائصها، فبناها، ورفع سمكها، وأغطش ليها وأخرج ضحاها... الخ. وهي خصائص مميزة لها عن غيرها، وتجد الأفعال المستخدمة معها مختلفة عن تلك المستخدمة مع الأرض (دحاها، طحاها، فرشها...).

وبعد اكتمال مرحلة تسوية السماء بدأ دحو الأرض (وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا). فهي تسوية خاصة بالأرض. ثم تسوية السماوات السبع.

المطلب الأول: خلاصة مرحلة التسوية

تحدث القرآن الكريم عن السماء الأولية، حين استوى إليها، وحين كانت دخانا، وحين تكلمت، وحين بكت. وتحدث عن بنائها ورفع سمكها.

وقد جاء الحديث عن (السماء الأولية) في ١٤ موضعا عند الحديث عن بداية الخلق، وهي الواردة في السور التالية: البقرة: ٢٢، وغافر: ٦٤، والنازعات: ٢٧، والشمس: ٥، وق: ٦، والذاريات: ٧، و٤٧. وثلاثة مواضع هي: البقرة: ٢٩، وفصلت: ١١، والدخان: ٢٩. وموضعان: الحج: ٦٥، والروم: ٢٥.

ويشمل الحديث عنها:

١. (الدخان): كانت السماء دخانا.
 ٢. (البناء): بنى الله السماء، ورفع سمكها، فسواها، وأوسعها، وأغطش ليلها وأخرج وضحاها، ووضع الميزان.
- ثم بعد ذلك دحا الأرض، ثم بعد ذلك سوى السماوات السبع.
- فخلاصة ما تم في مرحلتي الخلق والتسوية، كما يلي:
- أولا: مرحلة الخلق والرتق (أربعة أيام):
- (١) خلق الله السماوات والأرض في يومين [فكانتا رتقا].

٢) خلق الله ما في الأرض في يومين لوهي لا زالت مع السماء رتقا، قبل أن يستوى إلى السماء، وذلك قوله: (خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء).

٣) الفتق، فتقهما الله: (كانتا رتقا ففتقناهما).

ثانيا: مرحلة التسوية وما بعدها (يومان):

٣) تحولت السماء إلى دخان (ثم استوى إلى السماء وهي دخان)،

٤) رفع السماء وسواها، وأتم خلقها، ودحا الأرض وقدر أقواتها. وهو المراد بقوله (فقال لها وللأرض ائتيا..)، فأتيا بعد الفتق فسواهما. وسوى السماوات السبع - كل ذلك في يومين. بدليل آية فصلت (ثم استوى إلى السماء وهي دخان... في يومين)، فمن حين أن استوى إلى السماء وهي دخان إلى أن خلق السماوات السبع كان في يومين.

ومن ثم فما توصلت إليه اكتشافات علماء "الفلك" إنما هو لما حدث في جزء من اليومين الأخيرين بعد أن تحولت السماء إلى دخان، ورفع الله السماء وسواها، وقدر أقوات الأرض. ثم في جزء من اليومين سوى الله السماوات السبع، وهذه في غير مدرك البشر.

فالذي يبدو - لي، والله أعلم بمراده - من هذه الآيات أن الله خلق السماوات والأرض في يومين. ثم خلق ما في الأرض جميعاً من عناصر تجعلها مهيئة للحياة ولسكن الإنسان في يومين. ثم فتق السماوات والأرض وسواهما، وسوى السماء سبع سماوات في يومين.

(اليومان الأخيران):

وإذا تساءلنا ما الذي حدث في اليومين الأخيرين، فالجواب يتبين لنا في سورة النازعات قال تعالى: (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَاللَّأْرُضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ)، فالحديث هنا عن بناء السماء وتسويتها، ودحو الأرض، وليس عن الخلق، وهذا تم بعد أن استوى إلى السماء وهي دخان.

فالآية تبين أن بناء السماء ورفعها كان قبل دحو الأرض وبسطها. فبنى الله السماء ورفعها وسواها ثم بعد ذلك دحا الأرض وأرسى جبالها، ثم بعد ذلك - كما في سورة فصلت - سوى السماوات السبع، وكل ذلك في يومين، قال تعالى: (ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)، فهذا كله تم في يومين.

راجع المدخل (تسوية السماوات السبع) لبيان الأدلة أن تسوية
السماوات السبع كان بعد تسوية السماء والأرض.

قال تعالى (ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ
اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١))، وقال تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ
لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ).

تقدم الحديث عن قوله (ثم استوى إلى السماء)، في: ترتيب الخلق.

المطلب الثاني: الدخان

قال تعالى (ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١))، وقال تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) فهو استوى إلى السماء التي خلقها مع الأرض. وقال تعالى: (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩)).

وقد سبق الحديث عن مرحلة الدخان، وأن السماء كانت دخانا. وبينت المرحلة التي كانت فيها السماء دخانا. وبينت دلالة (استوى إلى السماء وهي دخان)، وأن ذلك يعني أن تحول السماء إلى دخان كان فاصلا بين مرحلتين: مرحلة الخلق وما تم فيها، ومرحلة التسوية وما تلاها، وأن تحول السماء إلى دخان تلاه تسويتها ودحو الأرض، حيث قال الله لهما (ائتيا طوعا أو كرها).

والدخان في اللغة العربية، له مجموعة من الدلالات والخصائص:

الأولى: أنه مادة تنشأ عن احتراق النار، (قال ابن فارس في مقاييس اللغة: وهو الذي يكون عن الوقود)، وقال الأزهري في تهذيب اللغة: دَخِنَتْ النار تَدَخِنُ: إذا أَلْقِيَتْ عَلَيْهَا حَطْبًا حَتَّى يَهِيَجَ لِذَلِكَ دُخَانٌ يَشْتَدُ، ولذلك فالشُّواظُ، كما في المعجم: لَهَبٌ لَا دُخَانَ فِيهِ، وقد ميزت العرب بين

المادة التي تسطع من النار، والتي تسطع من الماء الحار، قال في لسان العرب: (وكل دخان يسطع من ماء حار، فهو بخار).

الثانية: الارتفاع، فالدخان يظل يرتفع، حتى إن العرب تشبه الغبار به إذا أرادوا الدلالة على ارتفاعه، فيقولون: (دَخَنَ الغُبَارُ)، أي: ارتفع.

الثالثة: السطوع، وقد ورد في المعجم العربية: (دَخَنَ النَّارُ والدُّخَانُ دُخُونًا: إِذَا سَطَعَ).

الرابعة: شدة الحرارة، تقول العرب: لَيْلَةٌ دَخْنَانَةٌ: شديدة الحر، كَأَنَّمَا تَغَشَّاهَا دُخَانٌ مِنْ شِدَّةِ حَرِّهَا.

الخامسة: الشدة والكثافة، قال الأزهري في تهذيب اللغة: دَخِنَتِ النارُ تَدَخُنُ: إِذَا أَلْقِيَتْ عَلَيْهَا حَطْبًا حَتَّى يَهِيَجَ لَدُنْكَ دُخَانٌ يَشْتَدُّ. وقوله يدل على أن الكثافة والشدة في الدخان لا تكون إلا إذا عظم الاتقاد. وتقول العرب: تغشاه دخان، فيستخدمون لفظ التغشي، وذلك لكثافة الدخان.

السادسة: لون الكدرة في سواد، وهو لون الدخان.

وقد جاء في الموسوعة العربية: (الدخان مادة على هيئة جسيمات صلبة، وسائلية، مجزأة على نحو دقيق، ومعلقة في وسط غازي)، وهذه الحالة تشبه حالة السماء وهي دخان، حيث إنها حالة أعقبت خلق السماوات

والأرض، فكانتا رتقا، ففتقهما الله، وأصبحت السماء دخانا، والمواد التي كانت في الجرم (الرتق) مواد مختلفة: صلبة وسائلة وغازية، ومن ثم فكلها ستكون معلقة في الوسط الغازي.

وهذه الخصائص والدلالات تبين حالة السماء عندما كانت دخانا، فقد نشأ الدخان عن اتقاد عظيم، (وهذا الاتقاد يكون قد صاحب الفتق، حيث أدى فتقهما إلى اتقاد عظيم نشأ عنه دخان، كثيف شديد، وارتفع ارتفاعا عظيما، وكان ذا سطوع بيّن، وكانت الحرارة هائلة جدا تناسب هذه الحالة الهائلة. كذلك يتبين لنا لون السماء عندما كانت في هذه الحالة (لون الدخان: كدرة في سواد).

وكان الدخان - كما بينت - بداية مرحلة التسوية، وهي مرحلة فارقة في تاريخ السماوات والأرض، مرحلة فرقت بين الخلق وإتمام الخلق، ولذلك استخدم القرآن الكريم قوله (ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ) مرتين للدلالة على بداية هذه المرحلة، ولم يستخدم ذلك في غير هذا الموطن.

ثم إن المتدبر يجد أن الله يقول: (ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا ..)، فلم يقل: ثم استوى إلى السماء والأرض وهما دخان، بالرغم من أنه وجه القول بعد ذلك إليهما معا. وهذا يشير - والله أعلم - إلى أن الأرض في تلك المرحلة كانت بحجم ضئيل جدا حتى إنها لم تذكر، وحتى إنها لا تبدو للراصدين، واليوم - كما أشرت - لم تتبين

الأرض لعلماء الفلك، أثناء خلقها إلا بعد مرور مليارات السنوات من البدء (كما يقدرّون).

كما يدل ذلك على أن الأرض قد انفتحت عن السماوات، وهذه السماء الأولية هي أم السماوات أو أصلها، فالدخان حالة خاصة بالسماء، وليس بالسماوات والأرض.

وفي آية فصلت أثبت القول للسماء والأرض في هذه المرحلة (قالتا أتينا طائعين)، كما إن الله أثبت لهما فعلا صوتيا آخر وهو البكاء، ولم يثبت لهما ذلك إلا في موضع واحد في القرآن الكريم، وهو قوله (فما بكت عليهم السماء والأرض)، وهي في سورة الدخان. فلعل ذلك والله أعلم إشارة إلى ما حدث من السماء والأرض في تلك المرحلة، مرحلة الدخان، من قول خاضع وبكاء. وآية سورة الدخان تثبت البكاء ولا تنفيه، وتثبته لشيء غير مسمى، وتنفيه عن الشيء المسمى، فهو ينفي أن يكون بكاء السماء والأرض (عليهم)، وهذا يعني أن بكاءهما كان على (أو لـ) شيء آخر، ولعل ما في سورة فصلت يفسر هذا الشيء. ومجيء آية الدخان بعد قصة فرعون، يفيد أن بكاءهما عندما فتقهما الله كان لاستعظام أن يعصى الله عليهما، فهو ربهما العظيم، وقد أتيتا إليه طائعتين خاضعتين، فبكتا تعظيما له أن يعصى عليهما، وإشفاقاً منه أن يعصيه بعض خلقه عليهما. والله أعلم.

(فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها)، أي: بعد الخلق والفتق،
وتحول السماء إلى دخان، ناداها الله والأرض، فأتيتا فسواهما، فبنى السماء
ورفع سمكها، ودحا الأرض ومدها.

المطلب الثالث: البناء

الآيات الواردة، التي فيها لفظ البناء، صنفان:

الأول: (آيات إخبارية)، تخبرنا عن فعل الله سبحانه وتعالى: بنى السماء، ودحا الأرض.

قال تعالى: (سورة النازعات): (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغَطَّشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣)).

وقال تعالى: (سورة الشمس): (وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا).

وقال تعالى: (سورة الذاريات): (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ).

وقد جاء لفظ البناء في هذه المواطن الثلاثة فعلا: (بناها، بنيناها)، وكذلك ما تعلق بالأرض: (دحاها، طحاها، فرشناها). وفي هذه المواطن يلاحظ الترتيب، فبناء السماء أولا، ثم دحو الأرض ثانيا، وآية النازعات صريحة في الترتيب.

الصنف الثاني: (آيات امتنانية)، تمتن على الخلق بأن جعل الله السماء بناء والأرض فراشا،

قال تعالى: (سورة البقرة): (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً).

وقال تعالى: (سورة غافر): (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً).

وفي هذين الموضعين، جاء الفعل (جعل)، واستخدم الاسم لا الفعل (فراشا، قرارا، بناء)، بخلاف المواطن السابقة: بناها، بنيناها، فرشناها... إلخ، فذكرهما كان في مقام الامتنان (جعل لكم)، ويدل على ذلك المعطوفات الأخرى في الآيتين، فكلاها دالة على الامتنان في سورة غافر (وصوركم.. ورزقكم..)، وفي البقرة: (رزقا لكم)!

وبالتدبر في هذه الآيات الكريمة نجد أن القرآن الكريم يقرر ما يلي:

أولاً: آيات الصنف الأول واضحة الدلالة على الترتيب، فهي إخبارية، بينما آيات الصنف الثاني امتنانية لا تدل على الترتيب.

ثانياً: هذه الآيات كلها تتحدث عن بناء السماء الأولية، والمراحل التي تمت فيها، ولم يستخدم القرآن الكريم لفظ البناء إلا مع السماء الأولية، التي كانت قبل تسوية السماوات السبع؛ فبناء السماء ورفع سمكها وتسويتها، كان قبل دحو الأرض (كما في سورة النازعات)، وقد قدمت الأدلة على ذلك، عند الحديث عن ترتيب المخلوقات، فأكتفي بذكرها. وما أقرره هنا أن البناء ورد مع السماء الأولية، ونلاحظ في الآيات السابقة كلها، اقتران دحو الأرض ببناء السماء، مما يدل على أن ذلك كان قبل تسوية السماوات.

هنا إشكالية قد تبدو، وهي أن آية سورة ق: (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ)، ذكر فيها لفظ البناء، مع أن الحديث عن السماء الدنيا، لا السماء الأولية، بدليل قوله (فوقهم)، وقوله (وزينناها)، وقوله (ينظروا إلى)، فكلها تبين أنها السماء الدنيا. والسؤال: لماذا ذكر لفظ (البناء) هنا مع السماء الدنيا؟ فالجواب والله أعلم أن الآية جاءت في مقام النظر والاعتبار، ولذلك تم توجيه أنظارهم إلى السماء المبنية فوقهم، المزينة، والآية ليست إخبارية، وإنما تحفيزية تحفز على التفكير، ولذلك استخدم لفظ (كيف)، فقال: (كيف بنيناها)، أي: كيف كان بناؤها، فالنظر في السماء الدنيا سيكون دليلاً لهم يرشدهم إلى كيفية بناء الله للسماء الأولية، فهي الدليل عليها، ولا سبيل

للوصول إليها إلا بالنظر إلى السماء الدنيا. ويدل على هذا أيضا ما جاء في سورة الغاشية: ((أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)). فاقترن لفظ النظر بالكيفية، مع أن الرفع أولا كان للسماء الأولية.

ثالثاً: لم يستخدم لفظ البناء مع الأرض قط، بل استخدم مع السماء فقط، وفي كل المواطن التي ذكر فيها السماء يستخدم لفظ (البناء)، فعلا أو اسما. وقد تعددت الألفاظ التي استخدمت مع الأرض: (دحاها، طحاها، فرشناها، فراشا، قرارا).

وقد التفت الإمام الرازي لهذا، فقال في تفسيره عند قوله تعالى (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ): (كرر ذكر البناء في السموات، فما الحكمة فيه؟ نقول فيه وجوه، أحدها: أن البناء باق إلى قيام القيامة لم يسقط منه شيء ولم يعدم منه جزء، وأما الأرض فهي في التبدل والتغير فهي كالفرش الذي يبسط ويطوى وينقل، والسماء كالبناء المبني الثابت، وإليه الإشارة بقوله تعالى: (سبعا شدادا)، وأما الأراضي فكم منها ما صار بحرا وعاد أرضا من وقت حدوثها. ثانيها: أن السماء ترى كالقبة المبنية فوق الرؤوس، والأرض مبسوطة مدحوة والبناء بالمرفوع أليق، كما قال تعالى: (رفع سمكها).

ثالثها: قال بعض الحكماء: السماء مسكن الأرواح والأرض موضع الأعمال والمسكن أليق بكونه بناء والله أعلم).

والأولى أن نبحت عن الفرق من حيث التسوية، التي أعقبت الخلق، فالله سبحانه وتعالى يبين أنه بنى السماء، فالسمااء بناء محكم، له خصائص البناء، أما الأرض فهي ليست بناء، بل فراش، لها خصائص الفراش. وسأبين ذلك.

رابعاً: الأفعال التي تمت في هذه المرحلة، كما تبينه لنا آيات النزعات، هي: بناء السماء، ورفع سمكها، وتسويتها، وإغطاش ليلها، وإخراج ضحاها. والأرض بعد ذلك: دحاها، أخرج منها ماءها ومرعاها، والجبال أرساها. [وسأتناولها لاحقاً].

الفرع الأول: بناء السماء:

حديث القرآن الكريم عن بناء السماء يبين مجموعة من الأمور:

إذا نظرنا إلى عناصر عملية بناء الإنسان فهي ثلاثة: الوظيفة، والهيئة، ومراحل البناء.

الوظيفة:

كما تسمى عنصر الخدمة؛ فالمبنى يصمم لغرض معين، ووظيفة المبنى هي أول عنصر يحدد تصميم المبنى، وبناءه بعد ذلك، والعناصر اللازم توفرها فيه لتحقيق ذلك الغرض، وتلبية حاجة مستخدميه، فبناء مسكن غير بناء مستشفى، غير بناء جراج... الخ. فوظيفة المبنى تحدد توزيع الاتجاهات والغرف والإضاءة والتهوية والحركة وغيرها.

وفي القرآن أكثر من عشرة مواضع تحدد المنحى الوظيفي للسموات والأرض، فالله لم يخلقهما باطلا، بل خلقهما بالحق، قال تعالى: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)، وقال: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)... فالله خلق السماء بالحق، لحكمة بينها في كتابه.

ومن تلك الحكمة أن السماوات والأرض جعلهن الله مسكناً للأحياء الذين خلقهم، في الحياة الدنيا، ثم يطويهن الله (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ)، (وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ). فهيأها الله لتكون مسكناً صالحاً للساكنين، وأنشطتهم المختلفة.

الهيئة:

أي هيئة المبنى، فالمصمم يحدد هيئة المبنى: شكله، وحجمه، والمواد المستخدمة فيه، ونسبها ومقاديرها، ومدى تحقق الأمان فيه، ومدى ملاءمته مع البيئة، وفق عوامل كثيرة، منها وظيفته، ومنها عوامل بيئية، وعوامل سكنية واجتماعية وثقافية... الخ. وعليه يأخذ المبنى شكله وحجمه مسبقاً، وما يتم بعد ذلك إنما هو تنفيذ البناء. فالتصميم هو أهم أعمال البناء.

وقد حدد القرآن الكريم هيئة السماء - كما نضهمه، قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)، والفلك الشيء المستدير الكروي، قال الطبري: (وجائز أن يكون ذلك الفلك كما قال مجاهد كحديدة الرحى، وكما ذكر عن الحسن كطاحونة الرحى، وجائز أن يكون موجاً مكفوفاً، وأن يكون قطب السماء، وذلك أن الفلك في كلام العرب هو كل شيء دائر)، وقال القرطبي: (وأصل الكلمة من الدوران، ومنه فلكة المغزل، لاستدارتها. ومنه قيل: فلك

ثدي المرأة تفليكا، وتفلك استدار. وفي حديث ابن مسعود: تركت فرسي كأنه يدور في فلك. كأنه لدورانه شبهه بفلك السماء الذي تدور عليه النجوم). وقال ابن تيمية: (والأفلاك مستديرة بالكتاب والسنة والإجماع؛ فإن لفظ " الفلك " يدل على الاستدارة، ومنه قوله تعالى " وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ "، قال ابن عباس: في فلكة كفلكة المغزل. ومنه قولهم: تَفَلَّكَ ثدي الجارية إذا استدار). وهناك آيات أخرى تبين هذا، كما أشرت إليه.

وأما الحجم، فمن ذا الذي يعلمه من البشر، وكل ما علمه البشر مما قدره بملايين السنين الضوئية ليس إلا جزءا من السماء الدنيا. وقد قال تعالى: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)، فهو حجم غير ثابت، بل في توسع مستمر، وسأتحدث عن هذا لاحقا. والناس لا يمكنهم توسعة شيء مبني إلا بهدم أجزاء منه. أما السماء فهي بناء يتوسع باستمرار، دون الحاجة إلى هدم أو نقض.

وأما المواد المستخدمة في بناء السماء، فليس في القرآن الكريم - والله أعلم - بيان لهذه المواد. ومقتضى بنائها أنها مبنية من مواد معينة، عرفنا بعضها وما زلنا نجهل كثيرا منها، وما عرفه الإنسان منها يظهر منتهى الدقة وروعة التوازن وجمال الوحدة في بناء لبنات هذه السماء من الذرة إلى المجرة، وحدة في مواد البناء وأنظمتها وسننه، تحكمه بإحكام وإتقان، وانتظام.

مراحل البناء:

تمر مراحل البناء، بالنسبة للإنسان، بثلاث مراحل، المرحلة الأولى: دراسة جدوى المشروع، والمرحلة الثانية: إعداد المخططات والرسومات، والمرحلة الثالثة: تنفيذ المشروع.

ففي المرحلة الأولى، يتم دراسة جدوى المشروع، ودراسة الظروف البيئية والاجتماعية والثقافية، ومعرفة مدى ملائمة البناء في المنطقة، ومناسبة التكلفة... الخ.

وهذه المرحلة يقوم بها الإنسان؛ لينتقل من جهل بالشيء إلى علم به، ومن ثم يصدر حكمه عن جدوى المشروع. أما الله سبحانه وتعالى فله العلم المطلق، وله الخبرة الكاملة، وله الحكمة المثلى، هو الذي يخلق الظروف وينشئها، سبحانه وتعالى.

وأما المرحلة الثانية، فهي مرحلة التخطيط، حيث يتم إعداد المخططات والرسومات الأولية والنهائية، ويشترك في ذلك المهندس المعماري والمدني وغيرهما، بحيث يتم ضمان اشتمالها على كافة عناصر البناء: الوظيفة والخدمة (توزيع الاتجاهات والغرف والفضاءات والتهوية والحركة وغيرها)، والجمال (الألوان والمواد والتكسيات والواجهات وشكل البناء وغيرها)، والأمان والاقتصاد (وذلك بحساب كميات المواد اللازمة

لإقامة هيكل البناء الإنشائي من حديد وخرسانة وغيرها، بحيث يضمن تحقيق عنصري الأمان والاقتصاد).

وبناء السماء، يبين الله سبحانه وتعالى أنه ما خلق السماء والأرض إلا بالحق، كما تبين آيات القرآن الكريم أن السماء بنيت بدقة وإتقان وإحكام، لا مثيل له، وقد جعلها الله آمنة للساكنين، وهياً لهم فيها كل ما يحتاجون إليه. واليوم يبين علماء الفلك الحسابات المتناهية الدقة في هذا البناء، والتوازن الدقيق في نسب المواد والطاقات والقوى ووظائفها، وترابطها الوثيق بعضها ببعض...

ثم المرحلة الثالثة: التنفيذ، ويمكن توزيعها على الخطوات التالية، وهي: (أعمال ما قبل البناء)، و(التأسيس والرفع)، و(التركيب)، و(التسوية)، و(التشغيل والصيانة).

فأعمال ما قبل البناء: تشمل استكشاف التربة، ودراساتها، ومعرفة مدى متانتها وتوازنها وثباتها واستقرارها، وتجهيز المكان.

وأعمال التأسيس والرفع: التأسيس إشارة إلى الجزء القاعدي من البناء، والرفع إشارة إلى الجزء العلوي منه، وتشمل: الحفر، وبناء القواعد، ثم رفع البناء العلوي من أعمدة وجدران وأسقف.

والتركيب يشمل تمديدات الخدمة، كتغذية المبنى بالماء، وتمديد خطوط الكهرباء، ومد أنابيب الغاز والماء والصرف الصحي، والعزل، وتزويد المبنى بنظام التدفئة، فالتركيب بمثابة تزويد البناء بالأعصاب.

والتسوية، وتشمل التكسية المعمارية (وتمثل كساء العظم بالجلد)، كما تشمل إعداد الوجه الظاهر في داخل المبنى، من طلاء، وديكور، وتلميع، وصقل الأرضيات، وأعمال الزخرفة، والتزيين، والتشجير، وغيرها.

وأخيراً تشغيل المبنى، والصيانة الدورية للمبنى، والمحافظة عليه.

هذه باختصار أهم خطوات تنفيذ البناء، مع وجود كثير من التفاصيل في كل خطوة.

وسنتدبر حديث القرآن الكريم عن بناء السماء، في ضوء هذه العناصر.

بالنسبة لما قبل البناء، فإن الله سبحانه وتعالى بين أنه الذي خلق السماوات والأرض، فكانتا رتقا، أي: متضامتين ملتصقتين. ثم لما أذن فتقهما، ثم استوى إلى السماء وهي دخان، ويناها. فالله هو خالق المكان، وهو خالق كل شيء، وهو الذي خلق كل شيء مهياً لما سيكون عليه، خلق كل شيء فقدره تقديراً.

وأما التأسيس والرفع، فقد تحدث القرآن الكريم أنه بنى السماوات فكانت شدادا، (وَبَيْنَنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا)، قال الزمخشري: (محكمة قوية الخلق لا يؤثر فيها مرور الأزمان)، وقال ابن عطية: (ووصفها بالشدّة؛ لأنه لا يسرع إليها فساد لوثاقتها). فهو بناء شديد متين وثيق، هيئ لحمل الخلائق التي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

ولذلك قال تعالى: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ)، قال ابن عباس: أي: بقوة، وهو تفسير الجمهور، وذكر الرازي في تفسيره وجها آخر، وهو حمل لفظ (بأيدي)، على قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ). فهو جمع (يد). ولهذا بحث آخر.

وقال: (وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْحُبُوكِ)، فهي بناء نسيجي، نسجت نسجا شديدا محكما متقنا، كالنسيج الذي شدت خيوطه بإحكام.

كما تحدث القرآن الكريم عن أن الله رفع السماء بلا عمد مرئية: (والسمااء رفعها)، (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا). فالناس يبنون ويحتاجون إلى وضع الأسس لحفظ المبنى من التصدع والانهيان، ولضمان ثباته على الأرض، فيضعون القواعد ويرفعون الأركان. أما الله سبحانه وتعالى، فقد رفع السماء بلا عمد مرئية، فهي محفوظة، وللكرسي دور في حفظها بإذن الله.

كما أخبر القرآن الكريم عن مرونة هذا البناء، فهو بالرغم من شدته ومتانته ووثاقته، فإنه غير جامد، بل يتوسع باستمرار، (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)، وهذا ما لا يكون في بنیان الناس، فهم لا يوسعون ما يبنون إلا بالهدم الجزئي، أما الله فيوسع بناء السماء دون الحاجة إلى هدم أجزاء من ذلك البناء.

وأما التركيب، فالقرآن الكريم يتحدث عن أن الله جعل السماء بناء مهياً للساكين، ومن ثم فقد زودت بكافة (تمديدات الخدمة)، التي يحتاجها هؤلاء الساكنون، وقد ذكر لنا القرآن شيئاً منها، ممتنا علينا، واليوم يتسابق العلماء في كشوفاتهم، وكل يوم يكتشفون لنا مزيداً من هذه (التمديدات)، فمن ذلك قوله: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ)، حيث يتحدث عن الماء الذي ينزل من السماء، لودلالة السماء هنا: الغلاف الجوي للأرض، وقد يشمل ما علاه أيضاً، وهو جزء من السماء، وقوله: (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بِنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا)، فإغطاش الليل وإخراج الضحى من السماء، هو من هذا القبيل. ولم يتحدث القرآن الكريم عن شيء كما تحدث عن هذا الأمر، وما امتن الله به على الإنسان وسخر له ما في السماوات والأرض، وتهيئة الأرض له أيضاً.

وأما التسوية، فقد أخبرنا القرآن الكريم أنه زين السماء (الدنيا)، والسماء الدنيا هي واحدة من السماوات السبع، بمصابيح، وبالكواكب، وجعل فيها النجوم، والبروج، (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ)، وتدبر قوله: (وزيناها للناظرين)؛ فزينتها للناظرين عمل مقصود، واليوم يتحدث المهندسون عن (هندسة المناظر)، أي: تزيين البناء للناظرين.

ويرد الحديث عن زينة السماء الدنيا، بعد الحديث عن بناء السماء الأولية، وتسويتها، ثم تسوية السماوات السبع، ثم يتحدث عن زينة السماء الدنيا، فالزينة تكون في الأخير، كما قال: (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا)، وقال: (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ).

ويتصل به أيضا ما جعله الله في الأرض من زينة، نباتها وألوانها وأحيائها، فالأرض جزء من البناء.

وأما التشغيل، فقد خلق الله ساكني السماوات والأرض من أحياء، بعد أن بنى لهم السماء، (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ). والقرآن الكريم يستخدم لفظ (التدبير)، قال تعالى: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأُمْرَ)، فهو يدبر أمر المخلوقات. سبحانه وتعالى.

وأما الصيانة، فإن القرآن الكريم يتحدث عن أن الله بنى السماء بناءً محكماً، لا شقوق فيه ولا صدوع ولا فروج، (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ)، وقال: (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ).

و(من تفاوت) كما قال الزمخشري: (أي: من اختلاف واضطراب في الخلقة ولا تناقض، إنما هي مستوية مستقيمة. وحقيقة التفاوت: عدم التناسب، كأن بعض الشيء يفوت بعضاً ولا يلائمه. ومنه قولهم: خلق متفاوت).

ومهندسو البناء (وخصوصاً ناطحات السحاب) يشيدونه قويا، ويستخدمون أجود المواد التي تتحمل الأحمال الثقيلة والجهد العالي، ويجعلون أساسه متينا، وواجهاته مقاومة للتلف وتسرب الرطوبة؛ حتى يظل أطول فترة ممكنة دون صيانة. وبالرغم من ذلك فإنه يظل لمدة ما، ثم بعد ذلك تبدأ أعمال الصيانة.

والتصدع في البنيان، له ظواهر عديدة، منها: التشققات، أو تآكل المواد، أو الميلان، أو غير ذلك. أما السماء فقد وصف الله بنائها بأنه شديد؛ فلا يتصدع ولا يتشقق، وهو بناء متين محكم، يظل بإذن الله دون حاجة إلى صيانة أو إصلاح، فما فيها من تفاوت، وما لها من فطور، أو شقوق، أو صدوع.

وحين يأذن الله بانتهاء الدنيا، فإن ذلك البناء كله يتفطر ويتشقق
ويتصدع.



الفرع الثاني: ذات الحبك:

قال تعالى: (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ). في الآية مبحثان، الأول:

المقصود بالسماء، والثاني: المقصود بكونها: ذات الحبك.

أما السماء فقد قدمت أنه لا قرينة لدينا ترجح هل هي السماء الأولية، أو السماء الدنيا. إلا أن الآية وردت في سورة الذاريات، وقد جاء الحديث فيها عن بناء السماء (والسماء بنيانها بأيد)، والمقصود بها السماء الأولية، وحيث لا قرينة غير هذه، فحملها على السماء الأولية أولى. ويؤيد هذا دلالة (الحبك)، كما سيأتي.

أما الحبك،

مفهوم (الحبك) في اللغة:

قال ابن فارس في مقاييس اللغة أن المعنى الأساس للجذر هو: (إحكام الشيء في امتداد واطراد). وهي عبارة اشتملت على مجموعة خصائص دلالية في مفهوم (الحبك)، وهي: طبيعة الحبك (الشد)، وطريقته (الامتداد والاطراد).

إلا أن العبارة ينقصها عنصر أساس، وهو أن الخطوط تكون متكسرة، وقد ذكر ذلك الفراء كما في الصحاح: (الْحُبُّكَ تَكْسُرُ كُلَّ شَيْءٍ، كَالرَّمْلِ إِذَا مَرَّتْ بِهِ الرِّيحُ السَّاكِنَةُ، وَالْمَاءِ الْقَائِمِ إِذَا مَرَّتْ بِهِ الرِّيحُ).

وبذلك يمكن الوصول إلى المعنى الأساس لجذر (ح ب ك)، وهو:

خطوط ممتدة متناسجة محكمة.

وهذا التعريف يشتمل على خصيصتين دلالتين أساسيتين، في

مفهوم (الحبك)، وهما:

(١) بنية الحبك، فالمادة المحبوكة: خطوط ممتدة، غير

مستقيمة، بل متناسجة، أي كان شكل النسيج، والخطوط

النسجية عبارة عن ألياف يتم غزلها، فتكون مبرومة

لولبية.

(٢) طبيعة الحبك: الشدّ. (فهي محكمة). والشد المحكم،

يقتضي الجودة في تضيير الخطوط، ونسجها.

وكافة استخدامات اللفظ تعود إلى هذه المعاني، ويمكن تلخيصها

في مفهوم "الحبيكة"، فكل خطوط ممتدة منسوجة محكمة، تسميها العرب:

حبيكة، وجمعه: حُبُك^٢.

^٢ ومن ذلك: ضفائر الشعر، وطرائق الرمل، (وهي آثار مرور الريح على الرمل، فتصنع خطوطا

طويلة متكسرة تشبه النسيج)، وكذلك طرائق الماء (آثار الريح على الماء). قال زهير بن أبي

سلمى، يصف ماءً:

مُكَلَّلٌ بِعَمِيمٍ النَّبْتُ، تَسْجُهُ رِيحُ خَرِيْقٍ، لِضَاحِي مَائِهِ حُبُّكُ

البنية النسيجية:

الريح الخريق، هي الريح الشديدة، فهي تتسج وجه الماء حين تمر فوقه فتترك آثارها فيه، فتلك الحُبك، كأنها طرق لولبية.

وتسمى العرب الكساء المنسوج المخطط: محبوبكا، (في اللسان: حَبَك الثوب: أجاد نسجه وحسن أثر الصنعة فيه، وحبك الوتر كذلك)، ونقل في الصحاح عن ابن الأعرابي: (كل شيء أحكمته وأحسنت عمله فقد احتبكته)، والمقصود: كل شيء ذي خطوط طويلة، فالحبك ليس مطلق الإحكام. وعبارة مقاييس اللغة أدق، قال: (كساء مُحَبَّك، أي: مُحَطَّط)، فلا يوصف الشيء بالحبك إلا بمراعاة معنيين، الأول: الشكل، أن يكون ذا خطوط ممتدة منسوجة، والثاني: العلاقة بين هذه الخطوط: الشد بإحكام وإتقان.

كذلك تجد الدقة في قول ابن الأثير في النهاية: (وَمِنْهُ الْحَدِيثُ فِي صِفَةِ الدَّجَالِ «رَأْسُهُ حُبْكُ» أَي شَعْرُ رَأْسِهِ مُتَكَسِّرٌ مِنَ الْجُعُودَةِ، مِثْلُ الْمَاءِ السَّاكِنِ، أَوْ الرَّمْلِ إِذَا هَبَّتْ عَلَيْهِمَا الرِّيحُ، فَيَتَّجَعْدَانِ وَيَصِيرَانِ طَرَأَتْقًا).

وبهذا يمكننا فهم جميع استعمالات (حبك)، ويمكننا تصويب بعض عبارات المعاجم، فمثلا: (الحبكا)، عرفه ابن دريد في جمهرة اللغة: (أن يجمع خشب كالحظيرة ثم يشد في وسطه حبل يجمعه فذلك الحبل الحبكا). أما عبارة الأزهرى في تهذيب اللغة: (رباطُ الحظيرة بقصبات تُعْرَضُ ثم تُشَدُّ. تقول: حَبَكْتُ الحَظِيرَةَ كَمَا تُحَبِّكُ عُرُوشَ الكَرَمِ بالحِجَالِ). فعبارة الأزهرى أدق وأدل، وقد اشتملت على الدالتين الأساس. فوصف الرباط بأنه قصبات (وهي: خطوط ممتدة)، (تُعْرَضُ ثم تُشَدُّ): فهي قصبات تتداخل، وتشد بإحكام، كما تحبك عروش العنب. وفي ضوء هذا يمكننا فهم قول العرب: (احتبك الرجل)، في جمهرة اللغة: (تحبكت المرأة بنطاقها إذا شدته في وسطها. وكذلك تحبك الرجل بشيابه إذا تلبب بها. واحتبكت إزارى إذا شدته عليك). وفي اللسان: (احتبك بإزاره: احتبى به وشده إلى يديه). فالمحتبك عادة ما يشد إزاره بنطاقين متداخلين، حتى يعتمد عليه، ويجعله كالمسند لظهره، فلو كان النطاق خطأ واحدا لما أمكنه الاستناد عليه إلا إذا كان عريضا بحيث يشمل مقدمة الساق من الركبة إلى أسفل الساق. فسميت هذه الهيئة بالاحتباك لأنها اشتملت على دالتين، الأولى: شكل الرباط الذي يُحَبِّكُ به، وهو نطاقان يربطان متداخلين. والثاني: إحكام ربطهما.

ن فهم البنية النسيجية بالنظر إلى النسيج الذي يصنعه الإنسان، والنسيج الذي ينشئه الخالق سبحانه وتعالى، كالنسيج الحيواني والنباتي، وفتائل الذرة.

بالنظر إلى صناعة النسيج فإنها تمر بمجموعة من المراحل، يمكن تلخيصها في ما يلي: (انظر: الموسوعة العربية العالمية)، أولاً: تجميع الألياف والشعيرات، وهي تمثل المادة الخام الأولية. ثانياً: غزلها، وذلك بقتل الألياف لولبياً، وتحويلها إلى خيوط مبرومة جاهزة للحبك. ثالثاً: حياكة الخيوط، ونسجها، لصناعة الأنسجة. كما تشمل الصناعات النسيجية: الأصبغة التي تلون الخيوط النسيجية، والمواد المستخدمة في الخصائص الوظيفية للأنسجة... الخ. وإضافة إلى البنية النسيجية فإنه يشمل أداءها ووظيفتها.

(والسماء ذات الحبك)، فحُبُّك السماء، تعني أنها تتألف من أنسجة ذات أنظمة نسيجية متعددة. وكل نسيج منها يتألف من خيوط طويلة متينة قوية، وكل خيط منها يتألف من ألياف صغيرة ودقيقة (فتائل). وكل خيوط نسيجية لها خصائصها المتميزة، ومن ثم فهي زينة في السماء الدنيا. وهي مشدودة شداً محكماً، متقناً.

وأما النظر إلى النسيج المخلوق، كالنسيج الحيواني والنباتي فإنه يمكن القول إن التركيب النسيجي يتحقق في كل المخلوقات، فكما ذكرتُ

في بحث الغيب والشهادة، أن خلق الله يتشابه ولكنه لا يتمثل، كذلك البنية النسيجية (ذات الحبك) تتشابه في كل المخلوقات، ولكنها لا تتمثل، فلكل بنية نسيجية نظامها الخاص بها. ويمكن الوصول إلى وصف أدق للبنية النسيجية السماوية من خلال دراسة البنية النسيجية للخلايا النباتية، والحيوانية، ولفئات الذرة....

فالنسيج (سواء الحيواني أم النباتي)، مجموعة خلايا موحدة البنية والوظيفة، وترتبط الخلايا بعضها ببعض في وسط مادة هلامية. (انظر: الموسوعة العربية)، وكل نوع من الأنسجة له بنية تناسب وظيفته. فتتعدد بنى الأنسجة وأنماطها بحسب وظائفها المختلفة. ولهذه البنية النسيجية خصائص عديدة، كالنمو والتطور والمرونة، والموت والحياة، والصحة والمرض... الخ.

فالسماوات ذات الحُك، أي: ذات البناء النسيجي، مثلها مثل سائر المخلوقات (الحيوانات والنباتات وغيرها) كلها ذات بناء نسيجي. فخلق الله يتشابه ولا يتمثل، تشابهه في أنه يخضع للأنظمة نفسها، وعدم تماثله في أن كل مخلوق يتفرد بصفاته الخاصة به (سواء أكان المخلوق على مستوى الجنس أو النوع أو الفرد)، قال تعالى: (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاطُوتٍ)، أي: ما ترى فيه اختلافاً، فبعضه يشبه بعضاً، فهو خلق متشابه. [راجع بحثي: الغيب والشهادة في القرآن الكريم].



البنية النسيجية السماوية:

مما تقدم يمكن القول أن السماء ذات الحبك، تعني أنها ذات بنية نسيجية. والبنية النسيجية طرائق طويلة ممتدة متناسجة، محكمة الترابط. وقد نقل عن الضحاك في تفسيرها كما في الطبري: (حبكها مثل حبك الرمل، ومثل حبك الدرع، ومثل حبك الماء إذا ضربته الريح، فنسجته طرائق).

والحق سبحانه وتعالى يقسم بالسماء ذات الحبك، على (إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ)، فقابل بين الأمرين: السماء المحكمة شديدة الأحكام، المتقنة شديدة الإتقان، بالرغم من طرائقها الطويلة الهائلة، والبشر الذين اختلفوا في القرآن الكريم، بين مكذب ومصديق. والاختلاف ضعف وهلهة، وكان الأولى بهم أن يتفقوا في تصديقه والإيمان به.

تفيد الآية - إذن - أن البنية السماوية بنية نسيجية، تشتمل على: طرائق كثيرة ممتدة منسوجة نسجا محكما متقنا. ونحن نفهم من قوله تعالى: (ذات الحبك) ثلاثة أمور: بنية السماء، وأداء هذه البنية، ووظيفتها. أما البنية فنسيجية، وأما أداؤها فهي مرنة متينة شديدة الالتحام.

أولاً: البنية النسيجية:

(١) طبيعة البنية السماوية: بنية نسيجية. فهي تشبه البنى النسيجية في سائر المخلوقات، كما أسلفت القول.

(٢) وتتألف البنية النسيجية السماوية من خطوط طويلة ممتدة متناسجة، هذه الخطوط تسمى: طرائق، تتشابك هذه الطرائق كتشابك الأنسجة.

(٣) كل خط نسيجي يمثل حبيكة، ونقاط التقائها تسمى: عُقْدَة، فالخطوط تتشابك عن العقدة فتكون تجمعا أكبر. كل تجمع في مستوى ما يمثل حبيكة من الحبك. فالسما مليئة بالحبك، وكل تجمع بارز يمثل حبيكة بالنظر إلى تجمعات المستوى الأعلى، ومن ثم فقله (ذات الحبك) يرسم مشهدا مهيبا للتجمعات المجرية والمواقع النجمية التي في السماء، والتي تمثل مستويات متنوعة من التجمعات.

ولو قال: (والسما المحبوكة)، لاحتمل أن تكون ذات حبيكة واحدة، فالثوب المحبوك يمثل حبيكة واحدة. وأما قوله (ذات الحبك)، فهي تدل على أنها مليئة بالحبك، وليست حبيكة واحدة. فكل خطوط متداخلة منسوجة تمثل حبيكة، وتتجمع مع بعضها لتشكل: (حبكا). وهي إشارة إلى التجمعات المجرية الهائلة في السماء، فكل تجمع مجري يمثل حبيكة

بالنسبة للسماء، ثم إن كل تجمع مجري به حبك كثيرة، وكل مجرة كذلك، وكل مجموعة كذلك...

وهذا يفسر قوله تعالى: (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ). فمواقع النجوم هي المواقع التي تتخذها النجوم على تلك الحبك.

٤) تنوع الأنظمة النسيجية، فهو لم يقل: ذات الحبيكة، بل قال: (ذات الحُبُك). فالجمع يفيد تعدد الحبك، كما يفيد تنوع أنظمتها، مع اشتراكها في البنية النسيجية المحكمة. ففعل كل مستوى من التجمعات له نظام نسيجي يختلف عن الأنظمة النسيجية الأخرى. فبالرغم من تشابه الأنظمة النسيجية إلا أنها لا تتماثل. كالناس يتشابهون ولا يتماثلون، لكل نظام نسيجي بصمته التي تميزه عن البصمات النسيجية الأخرى. والله أعلم.

ثانياً: أداء البنية النسيجية

(المرونة والمتانة والإحكام والإتقان ...):

(١) الإحكام: فهي أربطة محكمة موثقة، تشد بعضها إلى بعض، فلا تتفكك عراها، ولا تتمزق أنسجتها. قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا).

وقد وصف الله السماوات بأنهن شدادا، فقال: (وَبَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا)، فهن بناء محكم شديد موثق.

وقال تعالى: (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِنًا وَهُوَ حَسِيرٌ)، وقال: (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ). فهو بناء محكم لا فطور فيه، ولا فروج. بنى الله السماء فأحكم بناءها، وأوثقها، فكان بناء محكما موثقا شديداً متينا.

(٢) الإتقان: فهي طرائق مفصلة أحسن تفصيل، متقنة أحسن إتقان، لا تتصادم رغم كثرتها، ولا تضطرب رغم حركتها، وعلى هذه الطرائق تأخذ النجوم مواقعها، والمجرات مواضعها، والكواكب مساراتها، والأجرام مداراتها... فالذي بناها قد أحسن بناءها، وأتقن صنعها، وأبدع نسجها، كل شيء مخطط بدقة وإتقان وإحسان، تتبين فيه روعة الصنع، كما قال:

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ). فسبحان الله العظيم (صُنِعَ اللهُ الَّذِي أَثْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ).

٣) المرونة والتوسع: هذه البنية النسيجية للسماء كانت متحققة فيها منذ أن فتق الله السماء، ودليل ذلك قوله تعالى: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)، فإيساع السماء هو تمددها بحبُكها ومواقعها الهائلة على تلك الحبك. فالبناء قد تم للجرم الصغير، الذي توسع ونما وكبر بعد ذلك. كما يتم خلق الإنسان كله وهو جنين في بطن أمه، ثم ينمو، فاليد التي لم تكن تتجاوز مليمترات وهو في بطن أمه تصبح طولها سنتيمترات وتنمو باستمرار. إن عملية الخلق التي نشاهدها في الأجنة تساعدنا على فهم نشأة السماوات والأرض، التي كانت كلها جنينية (في مرحلة الرتق)، وفتقها كعملية الولادة (مرحلة الفتق)، ثم بعد ذلك كان النمو (مرحلة التوسع). وسأتناول التوسع في الفقرات القادمة.

٤) جمال النسيج. سأحدث عن ذلك عند الحديث عن الزينة، فالله جعل السماء زينة، وزينها للناظرين. فالبنية النسيجية السماوية بنية ترع الناظرين، وتسحرهم بجمالها، وتأسرهم بزينتها، وتجذبهم بروعتها.



ثالثاً: وظيفة البنية النسيجية:

البنية النسيجية تأخذ شكلها وأداءها بناء على وظيفتها، سواء في ذلك النسيج الحيواني أو النباتي أو السماوي، أو غيره من أنسجة. والوظيفة التي تؤديها (السماوات الحُبُك)، تناولتها سابقاً عن الحديث عن البناء السماوي، وسأفردتها بالحديث لاحقاً.

ومن تلك الوظيفة: تهيئة أسباب المعيشة الآمنة للساكين، كالرزق، قال تعالى: (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ). والحماية: فالبناء النسيجي للسماوات قد صمم ليوفر الأمان لكل الأجرام والنجوم التي بداخله، ولكل الأحياء الذين يسكنون داخل هذا البناء النسيجي، ولكل شيء يحتويه. قال تعالى: (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ). وإيجاد مجالات الحركة، والتوازن الطاقوي، الخ.



فخلاصة دلالة قوله (ذات الحُبُك): أن بنية البناء السماوي عبارة عن خطوط طويلة متينة (طرائق) ممتدة عبر صفحة السماء، متداخلة بعضها ببعض، قد نسجت بإحكام وإتقان، وتربط بينها روابط قوية شديدة. وعُقدَ التقاء تلك الحُبُك هي مواقع نجمية، وتجمعات مجرية، تتوزع في مستويات متعددة، كل مستوى له نظام نسيجي متميز.



وهكذا يتبين لنا أن (ذات الحبك) تكشف لنا عن: (النظام النسيجي) الذي خلق الله الخلق عليه، وهو نظام يحتاج إلى مزيد من الدراسات للكشف عن بنيته وأدائه ووظيفته، وكيفية الإفادة منه في تطبيقات الحياة المختلفة، سواء التطبيقات العمرانية (النسيج العمراني، وتخطيط المدن وتصميمها)، أو التطبيقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بل حتى ممارسات الإنسان على المستوى الفردي والمستوى الجماعي. ولعل لهذا بحثاً آخر إن شاء الله.



الفرع الثالث: (وإنا لموسعون):

قال تعالى: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ
فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ).

اختلف المفسرون في المراد بقوله (لموسعون) على خمسة أقوال، كما
قال ابن الجوزي: (أحدها: لموسعون الرزق بالمطر، والثاني: لموسعون السماء،
والثالث: لقادرون، والرابع: لموسعون ما بين السماء والأرض، والخامس: لذو
سعة لا يضيق عما يريد).

لفظ (موسع)، يرد عند العرب لازماً ومتعددا لراجع بحثي: دراسة
معجمية لخمسة ألفاظ في القرآن الكريم، فأما اللازم نحو: أوسع الرجلُ
فهو موسع، أي صار ذا سعة، (غنى، مثلاً)، فالصيغة تفيد الصيرورة، فنحن
لا نقول للغني: أوسع، إلا إذا صار إلى الغنى بعد أن لم يكن. وكذلك:
أوسع الرجلُ، صار ذا سعة في علمه أو قدرته، فأصبح غنيا قادرا عالما... وعليه
فلا يصح حمل هذا المعنى على الله سبحانه وتعالى، فلا نقول: (أوسع الله)
بمعنى: أنه صار غنيا أو قادراً... فلفظ (أوسع) يقتضي الصيرورة، وتعالى الله
عن ذلك. ومن ثم فنحن لا نرتضي هذا المعنى تفسيراً في قوله (وإنا
لموسعون).

وأما المعنى الخامس الذي أورده ابن الجوزي (لذو سعة لا يضيق عمّا يريد)، فهو غير صحيح، فهذا معنى: واسع، من: وسع فهو واسع، أي: ذو سعة، ولو كان هذا المعنى لقال: (لواسعون).

وعليه فقوله (وإنا لموسعون) لا يحتمل إلا صيغة المتعدي، أي: وإنا لموسعون السماء، أي: نصيرها واسعة. وقد رجح ابن حيان - وهو من أئمة اللغة والتفسير هذا المعنى، قال: (وإنا لموسعون: أي بناءها، فالجملة حالية، أي بنيناها موسعوها، كقوله: جاء زيد وإنه لمسرع، أي مسرعا، فهي بحيث أن الأرض وما يحيط من الماء والهواء كالنقطة وسط الدائرة. وقال ابن زيد قريبا من هذا وهو: أن الوسع راجع إلى السماء).

والآية تتحدث عن بناء السماء وإحكام بنائها، ومن ثم فالأنسب حمل قوله (لموسعون)، على البناء لا على شيء آخر، فهو أليق بالسياق، وأنسب بالمقام، فالمعنى: لموسعون بناءها.

ذكرت في بحثي: (دراسة معجمية لخمسة ألفاظ في القرآن الكريم) أن السعة (طاقة محددة للشيء قابلة للتوسعة)، ومن ثم فتوسيع الشيء يتناسب مع طبيعته، فلو لديك دارٌ تريد توسيعها فإنك ستضيف حيزا جديداً لها دون أن تغير الحيز الأول، وربما هدمت شيئاً يسيراً منه؛ إذ لا تستطيع التوسيع دون قليل من الهدم. وفي الجملة فإن التوسعة لا تغير من طبيعة الشيء الموسّع، بل تتسق مع طبيعته، وتنسجم مع نظامه.

والله سبحانه وتعالى أوسع بناء السماء، وهو لا يقتضي التغيير، بل يكون الاتساع في إطار البناء، وهذا يقتضي مرونة البناء وروعته ودقته، بحيث إنه يقبل التوسعة دون أن يغير ذلك منه، وإذا أمكن لنا التمثيل فيمكننا أن نمثل بالبالونة التي يمكنك أن توسعها، فيزداد حجمها، دون أن يغير ذلك من هيئتها. أو تمثيلها بالخبز الذي تضعه في الفرن عجينا فينتفخ ويكبر. فعمل السماء كذلك والله أعلم، بناء ذو مرونة متناهية، يقبل التوسعة، دون أن يؤثر ذلك على بنائه شيئاً. والتوسعة تتناسب مع طبيعة البناء، وهذا يقتضي أنها تتم بصورة دقيقة ومنظمة، لا عشوائية فيها، بل بإحكام وإتقان.

كما أن توسيع البناء لا يقتضي استمرار التوسعة إلى ما لا نهاية، فالله سبحانه وتعالى أخبرنا أن للسموات والأرض وما فيها أجلا مسمى، قال تعالى: (مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى).



الفرع الرابع: (رفع سمكها):

ورد الحديث عن رفع السماء في أربعة مواطن، في آية النازعات: (رفع سمكها)، وفي سورة الغاشية: (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ). وفي سورة الرحمن: (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)، وفي سورة الرعد متحدثا عن السماوات كلها: (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا). فالسماوات بناها، بناها الله، فرفع سمكها، كما في النازعات.

والآيات تخبرنا عن: (رفع السماء)، و(رفع سمكها)، و(رفع السماوات بغير عمد ترونها).

أما الرفع، فكما بينته (في بحثي: دراسة معجمية لخمسة ألفاظ في القرآن الكريم): تحريك الشيء باتجاه الأعلى، بنقل أو إطالة أو زيادة، وقد يكون ذاتا أو مرتبة. فرفع السماء هو تحريك لها بإطالة، كما ترفع قواعد البيت، ولذا قال تعالى: (رَفَعَ سَمَكَهَا)، فبدأت بناء منخفضا، ثم رفعها الله فأطالها، وجعلها بناء عظيم (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً). كما أن رفع السماء يعني الزيادة في حجمها، وتوسعتها، كما قال تعالى: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)، فالسماوات كانت في بدء أمرها جرما صغيرا، فرفعها الله بزيادة حجمها، ومع زيادة الحجم كانت الإطالة أيضا. كما أن رفع السماء يتعلق بالمرتبة أيضا، فالسماوات مرفوعة والأرض

موضوعه، كما قال تعالى: (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ).

(رفع سمكها) - فما السمك؟

فسر بعض المفسرين "السمك" بالسقف، وفسره بعضهم بـ(غلظ السقف)، إلا أن المعنى الأدق له ليس السقف، بل هو كما في تهذيب اللغة: (مَا سَمَكَتْ بِهِ حَائِطًا أَوْ سَقْفًا)، وقال الفراء: (كل شيء حمل شيئاً من البناء أو غيره فهو سَمَكٌ)، والعرب تسمى الأعمدة التي تحمل الخباء وترفعه: السَمَاكُ. وتقول العرب: طويل السَمَك: إذا كان الشيء مرتفع القامة. وما أجمل ما قاله الإمام الرازي في تفسيره: (واعلم أن امتداد الشيء إذا أخذ من أعلاه إلى أسفله سمي عُمُقًا، وإذا أخذ من أسفله إلى أعلاه سمي سَمَكًا).

فالسَمَكُ، هي الجوانب التي تمتد من أسفل البناء إلى أعلاه، ورفعها يقتضي ارتفاع البناء، وإذا كان السمك مرفوعاً فإن السقف سيكون مرفوعاً أيضاً، فقولُه (رفع سمكها)، أي رفع امتداد البناء حتى سقفيها.

(بغير عمد ترونها)

وأما الشيء الذي رفعت به، فبيّنه قوله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ)، فهو قد رفعها (كما رفع السماوات كلها بعد ذلك) بغير عمد مرئية، والوصف (ترونها) في قوله (بغير عمد ترونها) معتبر في النفي كما يقرر ذلك أهل اللغة، فالمعنى: بعمد لا نراها، فهو لم ينف العمد وإلا قال (بغير عمد) واكتفى بذلك، ولكنه نفي رؤيتنا لها، كما تقول: زيد ليس برجل نزيه، فأنت تنفي النزاهة لا الرجولة، فالمعنى: بغير عمد مرئية، أي فهي عمد غير مرئية. ومثله قوله تعالى: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا). وقد قال بهذا التأويل - كما في الطبري - ابن عباس ومجاهد وقتادة، وغيرهم من أئمة التفسير بعد ذلك.

وهذا كما قال تعالى: (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا)، أي: لا يثقله حفظهما بأمر الله سبحانه وتعالى. وسأتحدث عن الآية عند الحديث عن الكرسي. وهو كقوله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ). وكذلك قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا).



وأما قوله تعالى: (وَالسَّقْفَ الْمَرْفُوعَ) فقد تقدم أنه العرش.

الفرع الخامس: (وضع الميزان):

في بحثي: (الغيب والشهادة في القرآن الكريم) تحدثت عن قوله تعالى: (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ)، وبينت أن الآية تتحدث عن ثلاثة موازين، هي: الميزان الموضوع، والميزان المنزل، وميزان المعاملات.

والميزان: الميزان: هو الشيء الذي تُوزن به الأشياء، فيحدد مقاديرها، ويضبطها ضبطاً تاماً.

أما الميزان الموضوع، فهو ميزان الله، والميزان المنزل هو ميزان النفس.

والميزان الموضوع، هو الميزان الذي وضعه الله في خلقه حين خلقهم، فحدد مقدار كل شيء، فكل شيء مضبوط موزون، لا يبغي شيء على آخر. قال تعالى: (وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)، وقال: (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ،) وقال: (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا)، (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا)، (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)، (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)، (وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)، (مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ)، (وَالَّذِي قَدَرَ فَهَدَىٰ)، (مَرَجَ

الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزُخٌ لَّا يَبْغِيَانِ)... وهذا هو الميزان الذي يقدر الله به كل شيء، فيقوم عليه حفظا ورعاية وتدبيراً. وتقدير الأشياء بضبط مقاديرها، فهي مقادير مضبوطة موزونة (وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) فهو القيوم سبحانه.

وهذا الميزان (الذي وضعه الله) يقوم الله به على النفوس، فيقدر لها ما ينفعها، وما يصلح حالها، فالله قائم بالقسط (قَائِمًا بِالْقِسْطِ)، وبهذا القسط يقضي بين خلقه (وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَّا يُظْلَمُونَ)، فيجازي كل نفس بما كسبت (وَتَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ). فهو حسيب على كل شيء، حتى مثقال الذرة من الكسب يحسبه، (لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)، (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)، (وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا). فكل مقدار عنده معلوم محسوب، قال تعالى (كِتَابٌ مَرْقُومٌ) الكتاب الذي تحفظ فيه أعمال الناس، مرقوم أي: مدون فيه كل شيء حتى مثاقيل الذرة من الأعمال، وحتى ما هو أصغر من ذلك. فتأخذ كل نفس حقها التام دون أن تظلم مثقال ذرة (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ).

وأما ميزان النفس، فهو الميزان الذي أنزله الله سبحانه وتعالى للنفس، لتزن به كل شيء، فتستقيم حياتها، تدرك به العدل من الظلم، والحق من الباطل، والخير من الشر، والفضيلة من الرذيلة، والهدى من الضلالة، والنافع من الضار، والصحيح من الخطأ... الخ.

والميزان الثالث (ميزان المعاملات): (وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ)، فهذا الميزان هو نموذج مادي يزن الناس به الأشياء المحسوسة التي لها ثقل معلوم، يمكنهم من تقديره تقديرا تاما، وضبطه ضبطا صحيحا، دون زيادة أو نقصان.

راجع: الغيب والشهادة في القرآن الكريم، للاطلاع على تفاصيل تلك الموازين.

الفرع السادس: أغطش ليلها وأخرج ضحاها:

هذه الآية في سورة النازعات، قال تعالى: (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ). وسياق الآية يبين داللتين:

الأولى: إغطاش الليل وإخراج الضحى، كان قبل مرحلة دحو الأرض، ولذلك قال (والأرض بعد ذلك)، أي: بعد بناء السماء ورفع سمكها وتسويتها وإغطاش ليلها وإخراج ضحاها، فذلك يعود إلى ما سبق. ومن ثم فمن الخطأ تفسيره بليل الأرض ونهارها، وتعاقبهما. فهو ليل أغطش وضحى أخرج قبل أن تُدحَى الأرض.

الثانية: الضمير في (ليلها)، و(ضحها) يعود إلى السماء، كما تعود الضمائر السابقة كلها إلى السماء (بناها، سمكها، سواها، ليلها، ضحاها).
(أغطش ليلها):

الغَطْشُ، في العربية ليس الإظلام على إطلاقه، ففي تهذيب اللغة للأزهري: (قال الأصمعي: الأرض الغَطْشاءُ: عمية المسالك، التي لا يُهتدى فيها الطريق. وقال شمر: الغَطْشُ: الضعف في البصر، وقيل: هو الذي لا يفتح عينيه في الشمس).

فدلالة (الغطش) قد تكون في النهار وقد تكون في الليل، ولا ترتبط بأحدهما، فهي تدل على: عمى المسالك، فالفلاة التي لا يهتدي فيها الناس تسمى: غطشاء، إذ عميت مسالكها عليهم، وخفيت معالمها، فلم تستبن لهم، حتى الهداة يضلون طريقها. وضعيف البصر الذي لا يهتدي ببصره رغم وجود الشمس فهو: أغطش.

فقوله تعالى: (أغطش ليلها)، أي: جعل ليلها حالكة الظلمة، لا يُهتدى فيه، ولا يُبصر فيه شيء. وهو كقوله تعالى: (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرَجُونَ) (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ)، فقوله (سكرت أبصارنا)، أي: كأنها أغلقت فلا يمكنها الرؤية أو الاهتداء لشيء في ليل السماء. فأية النازعات ترسم الصورة كصفحة مظلمة حالكة، لا إمكانية فيها لرؤية شيء. فليلها أغطش، أي: لا يهتدى فيه لشيء، كما قالت العرب: فلاة غطشاء: لا يهتدى فيها لشيء.

وتفيد الآية أن (ليل السماء) حالة دائمة، وهي حالة من قبل دحو الأرض، فتوسعت السماء وهي في حالة (الليل الأغطش).

إذن (أغطش ليلها)، جعله بحالة لا يُهتدى فيه، ولا يُبصر فيه شيء. ولا يستلزم أن الليل مظلم، فالعين البشرية مثلا تعجز عن الرؤية في الظلمة الشديدة، وفي الإضاءة الشديدة أيضا... فدلالة الغطش لا تدل على الظلمة، بل تدل على أن الليل جعله الله بحالة لا يُهتدى فيه، ولا يُبصر فيه

شيء. قد يكون شديد الإظلام وقد يكون شديد الإضاءة إلى درجة تعجز
الأبصار فيه عن الرؤية، كما قالوا (سكرت أبصارنا).

(وأخرج ضحاها):

(أخرج)، لفظ الإخراج يعني أن ثمة شيئاً يقع عليه فعل الإخراج،
فيظهر بعد خفاء، ويتضح بعد عماء. والشئ المُخْرَج، هو شيء كان مخفياً
في شيء آخر، فيظهر، كما يخرج الله الجنين من بطن أمه، فالجنين كان
مخفياً في بطن أمه، ثم أظهره الله. فالإخراج لا يعني: الإنشاء، ولكنه يعني:
إظهار الشيء المخفي في شيء آخر.

والآية تشير إلى أن الضحى كان مخفياً في السماء، فأخرجه الله
من شيء كان مخفياً فيه. والذي أفهمه أنه أخرجه من الليل، فبعد أن
أغطش الله ليل السماء حتى لم يعد يُهْتَدَى فيه. أخرج من هذه الحالة:
الضحى.

فما الضحى؟

مادة (ض ح و) في العربية كما قال ابن فارس في مقاييس اللغة
تدل على: (بروز الشيء ووضوحه، فالضحاء: امتداد النهار، وذلك هو الوقت
البارز المنكشف. ثم يقال للطعام الذي يؤكل في ذلك الوقت: ضحاء...
ويقال: ضحى الرجلُ يضحى، إذا تعرض للشمس. ويقال: اضحَ يا زيد، أي

ابرز للشمس... ويقال: ليلة إضحيانة وضحياء، أي مضيئة لا غيم فيها... وضاحية كل بلدة: ناحيتها البارزة... الخ). وهي دلالة دقيقة تجمع مفردات المادة، و(ض ح و) ذات صلة بـ (و ض ح)، فالوضوح بروز الشيء وظهوره، إلا أن الفارق بينهما أن دلالة (الضحو) ترتبط غالباً بـ (الضياء)، وترتبط بالوضوح الحسي.

ومن ثم فـ(الضحى) في العربية لا يقتصر معناه على الساعة المعروفة من ساعات النهار، كما هو شائع، بل معناه: الضياء البارز الواضح. وإذا تتبعنا استخدام القرآن الكريم للفظ الضحى، فسنجد ما يلي:

أولاً: قابل بين الضحى والليل في قوله (وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ)، وقابل بين العشية والضحى في قوله: (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا). وقابل بين البيات (وهو حدث في الليل) وبين الضحى في قوله: (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ).

وهذا يعني أن (الضحى) في هذه الآيات مقابل مفهومي ليل، وليس ساعة النهار المعروفة. فالليل هو وقت الظلمة، أما الضحى فهو وقت الضياء.

والقرآن الكريم يقابل بين الليل والنهار، كقوله: (أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا)، (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا)، فقابل بين النهار والبيات، كما قابل بين الضحى والبيات. فالنهار مقابل زمني لليل يقع على ساعاته كلها. وكذلك الضحى معادل زمني للنهار كله، [ولكنه ليس النهار]. والنهار يرتبط بضياء الشمس، يوجد حين توجد، ويذهب حين تذهب.

ثانيا: ورود الضحى مضافا إلى السماء والشمس.

أضاف الضحى إلى السماء، كما في النازعات (وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا). قال الزجاج: (أظهر نورها بالشمس)، وعند ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أخرج شمسها. وقال الطبري: (وأخرج ضياءها، يعني: أبرز نهارها فأظهره، ونور ضحاها). فالخلاصة أن ضحى السماء فسر ب: الشمس، والضياء، والنور، والنهار. (كما في الطبري). وسأعقب لاحقا.

وأضاف الضحى إلى الشمس، قال تعالى: (وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا)، واختلف المفسرون في المقصود بضحى الشمس، قال الزجاج ومجاهد: الضياء، وفسرها مقاتل والسدي: حرها، وقال قتادة: النهار كله.

ثالثاً: ورود (الضحى) مرادا به الوقت المعروف من النهار، كما في قوله: (قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى)، فحدد اليوم والوقت (الساعة).

رابعاً: ورود الفعل (يضحى)، في قوله: (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى). فالحديث عن الجنة ألا جوع فيها ولا عُري، ولا ظمأ ولا ضحو. قال الزجاج: (ولا تصيبك الشمس)، وقال الطبري: (لا تظهر للشمس فيؤذيك حرّها)، وقال الزمخشري أن المراد بالنفي إثبات ضده، فالمعنى أنك تكتنّ في ظل دائم.



مما سبق، يمكن القول أن (الضحى) مفهوم دلالي يرتبط بعنصر: الضياء، فالضياء يكون فيه وضوح الأشياء وبروزها. والضياء كما بينت في بحث (دراسة معجمية لخمسة ألفاظ في القرآن الكريم) يجمع بين عنصري: الحرارة والضوء، فهو يُحدث النور ويحدث الحرارة أيضاً. والقرآن الكريم يبين باطراد أن الله جعل الشمس ضياءً. فقوله هنا (والشمس وضحاها) يعني: وضياؤها (وفي الضياء: ضوء وحرارة). ويضعف تفسيره بالنهار؛ لقوله بعد ذلك: (والنهار إذا جلاها)، فلا يستقيم التفسير لو قلنا: والشمس ونهارها، والنهار إذا جلاها.

ومقابلة الضحى بالليل، والليل هو وقت الظلام، فالضحى هو وقت الضياء، سائر النهار، بل أطلقت العرب على الليالي القمرية: ضحيانة، فوصفتها بالضحو، وذلك دلالة على أن الضحى: الضياء. وتخصيص

بعض وقت النهار بالتسمية (وقت الضحى) لأمرين أنه أشد أوقات النهار
إضاءة، وأشدّها حرارة.

وقوله تعالى: (وأغطش ليلاً وأخرج ضحاها)، يدل على أمر آخر
إضافة إلى ما سبق، وهو أن الضحى لا يكون إلا بعد ليل. فقوله (وأخرج
ضحاها)، أي: أخرج الضحى من رحم ذلك الليل البهيم، ويدل عليه أيضاً
الآيات السابقة التي تقرن بين الضحى والليل، أو الضحى والبيات. فالدلالة
بين الضحى والليل دلالة تضاييف، لا يفهم أحدهما إلا بالآخر، كالعلاقة
بين (الأب والابن)، فلا يسمى أحد ابناً، إلا ويفهم منه أن ثمة أباً له. وهكذا
فلا يطلق: الضحى إلا ويفهم أن ثمة ليلاً له.

وقوله تعالى: (وأنت لا تظلم فيها ولا تضحي)، أي: لا تتعرض
للحرارة، ولا للضياء، بل تكون في ظلال دائمة لا حر ولا قر، ولا ظلام ولا
ضياء. فالجنة لا شمس فيها، كما قال تعالى: (لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا
زَمَهْرِيرًا)، وأهلها في ظلال دائمة (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ).

ونفي الضحو في الجنة، يبينه ما قلته أن دلالة الضحى إضافية
بالنسبة لليل، فالجنة لا ليل فيها ولا نهار (ضحى)، فهي حالة خاصة لا
علاقة لها بالمفاهيم الزمنية التي في الدنيا، ولا بالتعاقب الزمني، ولا
الحالات الطبيعية الناشئة عن هذا التعاقب من حرارة وبرودة، ومن ضياء

وظلام، ولا الحالات الجسمية الناشئة عن ذلك كالنمو والهزم، ولا الحالات النفسية من خوف أو أمن، أو فرح أو حزن....

فالأمن في الدنيا مثلا، هو أمن مرتبط بمخاوف كثيرة، وسعي الإنسان إلى الحصول على الأمن من تلك المخاوف، ويظل أمنا نسبيا، مرتبطا بأضداده. فهي حالة تفهم بضعها، وهو الخوف. أما الأمن في الجنة فهو مختلف عن ذلك، فلا يرتبط بخوف مطلقا، بل هو حالة مطلقة خاصة، لا يمكن للإنسان تصورها في الدنيا؛ لأن تصوره يرتبط بأضدادها. بينما هي حالة مطلقة في الجنة. وكذلك الحالات الأخرى، كالفرح والرضا...

كما أن نفي الجوع والظما والخوف والحزن ... عن أهل الجنة، لا يمكن تصوره على حقيقته المطلقة؛ لأن تصوره في الدنيا يرتبط بضعه. وعلى ذلك يمكن فهم الآية. والله أعلم.

فالخلاصة أن الضحى إذا أطلق فإنه يدل على: الضياء المنبعث بعد ظلمة، فكأنه أخرج من رحم ظلمة الليل البهيم، وهو أول ضحى كان في السماء (وأخرج ضحاها). وإذا قيد فإنه يدل على ما قيد به، كالوقت المعروف، أو الدلالة على البروز (ويرتبط بالبروز الحسي).



(وأخرج ضحاها):

فالمعنى إذن: أن الله سبحانه وتعالى خلق السماء وبنائها، وكانت في ظلمة تامة لا هداية فيها، وأغطش الله ليلاً، فأصبح ليلاً بهيماً. ومن رَجَم ذلك الليل البهيم أخرج الله ضحى السماء، وضحاها ضياؤها. وليس المقصود بالضحى هنا: الشمس، فالآية تتحدث عن ضحى السماء الذي أخرج الله من ليلاً المدلهم.

قد يكون الضياء هو النيرات الهائلة التي في السماء، فأنشأها الله ووضع فيها سنن الإضاءة، فتضيء، وجعل فيها سنن الهداية فتهدى الساكنين بالرغم من الليل الأغطش للسماء، فالشمس والنجوم والمصابيح كلها من ضحى السماء، كما قال تعالى: (وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ)، وقال: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)، (وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا). فهذه النيرات أخرجها الله من وسط الليل الأغطش، لتستقيم حياة المخلوقات، وحياة الإنسان.

فالضحى الذي أخرج الله يشتمل على أمرين، الأول: النيرات والأجرام المنيرة والهادية، كالشمس والنجوم والمصابيح. والثاني: سنن الإضاءة والهداية التي قدرها الله في خلقه، ومن هذه السنن: تعاقب الليل والنهار، وسنن الحرارة، وما قدره الله ليكون علامات هداية تهتدي به

الكائنات في البر والبحر والجو. فكل ذلك من الضحى الذي أخرجه الله ليضيء ويهتدى به.

الآية تبين أيضاً الزمن الذي تم فيه إخراج الضحى، وهو قبل دحو الأرض، فالأرض لم تُدَحْ إلا وقد أخرج الله من السماء الضحى. وهي مرحلة باكرة من إنشاء السماء.

والله أعلم.



دحو الأرض:

قال تعالى: (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغَطَّشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ).

فدحو الأرض وتقدير أقواتها تم (بعد ذلك)، أي بعد رفع السماء وتسويتها. وسأخصص بحثاً آخر للحديث عن الأرض وما يتعلق بها.

المطلب الرابع: تسوية السماوات السبع:

الفرع الأول: فسواهن سبع سماوات:

قال تعالى في سورة البقرة: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)، وفي سورة فصلت: (قُلْ أَتُنتَكُم لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِّنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ).

بينت سابقا أن خلق السماوات والأرض تم في المرحلة الأولى، وهي مرحلة الخلق، فخلقهن الله، ولكنه لم يسوهن إلا بعد أن سوى السماء الأولية ودحا الأرض.

وتسوية السماوات: إتمام خلقها وفقا لما قُدِّر لها أن تكون، بحيث تأخذ خصائصها التي تميزها عن غيرها. وكما تبين آيات القرآن الكريم أن الله خلق السماوات والأرض بادئ الأمر (في مرحلة الخلق)، فكانتا رتقا، وفي أول مرحلة التسوية فتق الله السماوات والأرض، فانفصلت الأرض، وظلت

السموات في رحم السماء الأولية، ثم سوى الله السماء الأولية، وبعد ذلك دحا الأرض، ثم سوى السموات السبع، فاستقلت كل سماء عن الأخرى، وأصبحت السماء التي تحيط بالأرض هي السماء الدنيا.

فتسوية السموات السبع، هو إتمام لخلقهن، بحيث تمايزت السماء الأولية إلى سبع سماوات، أدناهن السماء الدنيا، فبناهن الله (وَبَيْنَنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا)، فلا فروج فيهن ولا فطور: (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ)، ورفعهن بغير عمد مرئية: (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)، وجعلهن طباقا، أي: متطابقة بعضها فوق بعض، كل سماء تحيط بالتي تحتها، قال تعالى: (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا).

وفي آية فصلت قال (فقضاهن): (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ)، القضاء - كما في معاجم اللغة: الفصل في الأمر. والمعنى: بعد أن استوى الرحمن إلى السماء وهي دخان، سواهن سبع سماوات. وفي هذه الآية يشير إلى أنه أتم تلك التسوية، سواهن سبع سماوات فقضاهن، أي: أتمهن كما أراد وأمر.

وكما تبين آية فصلت، فإن الله سواهن سبع سماوات، وأوحى في كل سماء (أمرها)، وإضافة (أمر) إلى كل سماء يفيد تخصيصها بأمر

يختلف عن غيرها، ثم ذكر لنا ما يخص السماء الدنيا، فقال: (وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا)، فهذه الزينة من الأمر الذي يخص السماء الدنيا، فحيث ذكرت الزينة اقترنت بالسماء الدنيا.

وكانت تسوية السماوات السبع هي الجزء الأخير في مرحلة التسوية، وهي الجزء الأخير في الأيام الستة. ثم بعد ذلك كما قال تعالى: (ثم استوى على العرش)، فدخل الخلق في مرحلة التدبير.



والله ذكر خلق سبع سماوات في سبع آيات، هاتان آيتان تبيان أن تسوية السبع كان بعد الأرض (آيتا البقرة وفصلت).

وفي آيتين ذكر السماوات السبع دون ذكر الأرض؛ مما يدل على أنها مرحلة مستقلة عن دحو الأرض، قال تعالى: (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ)، وقال تعالى: (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا). وفي كلا الآيتين تحدث عن كونهن طباقا، ولم يتحدث في غيرهن عن ذلك، فأفردهن عن الأرض حين تحدث عن شيء يخصهن، كما أفرد السماوات في قوله: (خَلَقَ

السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوُونَهَا)، حين تحدث عن رفعها بغير عمد مرئية، وهو شيء لا يتعلق بالأرض.

وفي آيتين تحدث عن خضوعهن له وربوبيته لهن، وليس عن خلقهن، قال تعالى: (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)، وقال تعالى: (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ).

فحيث يأتي ذكر السماوات السبع فإنما تذكر بلفظ الخلق، ولم يذكر الله أنه سواهن (قضاهن) إلا في مواطن الحديث عن ترتيب الخلق، بلفظي التسوية والقضاء (فقضاهن)، (فسواهن)، فهو قد خلقهن من قبل، وإنما الجديد هو التسوية.

الفرع الثاني: ومن الأرض مثلهن:

وفي آية الطلاق تحدث عن المثلية، قال تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ). وهناك تكلف كبير من قبل بعض المعاصرين في تأويل الآية، فبعضهم يحاول أن يفترض وجود سبع طبقات أرضية، وهذا أمر لا يسلم به الجيولوجيون ويختلفون في عدد الطبقات... وبعضهم أولها بالسبع القارات، وهذا هراء لا يحتاج إلى رد. وكما تكلف بعضهم التأويل هنا فقد تكلفوا تأويل السماوات السبع، فعدها بعضهم سبع طبقات من الغلاف الجوي، وعدها بعضهم الكواكب السلعة (قبل ظهور الكوكب الثامن والتاسع)... وكل هذا بعيد عن دلالة القرآن

الكريم، والقرآن بريء من هذه التأويلات التي ينبري آخرون للطعن في القرآن الكريم من خلالها.

وصفوة القول، أن السماوات السبع خارج مدى الإدراك البشري، وكل ما يدركه البشر إنما هو جزء من السماء الدنيا، وهي واحدة من هذه السماوات السبع.

أما الأرض، فقولها (ومن الأرض مثلهن)، لا ندري ما حقيقة المثلية!! هل مثلية في العدد، أو مثلية في الطبقة، أو مثلية في الخلق، أو مثلية في ماذا؟ ولا يصح القول أن القرآن يشير إلى سبع أرضين. فليس هنالك أي دليل على ذلك، وحيثما ذكرت الأرض في القرآن فإنها تذكر مفردة (الأرض)، لم تذكر أبدا مجموعة. بخلاف السماوات التي ذكرت مجموعة وبين القرآن أنهن سبع سماوات.

فلا زالت هذه الآية خارج الفهم البشري حتى الآن، وربما يفتح الله على أحد خلقه بفهم بين لها.

الفرع الثالث: وأوحى في كل سماء أمرها:

كل ما علمه البشر اليوم، وما انتهت إليه علومهم الفلكية فإنما يتعلق بما حدث في جزء من اليومين الأخيرين (تسوية السماء والأرض)، أما ما تم في الجزء الأخير من اليومين (تسوية السماء إلى سبع سماوات)، فلم

تصل إليه علومهم، وليس لنا من علم بها إلا ما أخبرنا خالقها بها،
فسبحان ربي العظيم. والله أخبرنا عنها بما يلي:

أنها سبع سماوات، ويذكر القرآن الكريم أن الله (سواهن)، وقد
تحدثت آنفا عن الفرق بين التسوية والخلق. ويذكر القرآن الكريم أن الله
سواهن وأوحى في كل سماء أمرها.

و(الأمر) المقترن بالخلق في القرآن الكريم: هو التدبير، أي: السنن
التي يدبر الله بها خلقه، كما قال تعالى: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ
حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ
اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)، وقال تعالى: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ)، وقال تعالى: (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ
السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ). فلكل سماء أمرها، الذي يدبرها الله
به، فما الأمر الذي في السماوات؟ أو ما السنن التي يدبر الله بها أمر
السماوات؟

كل السنن التي تحدثت عنها في بناء السماء الأولية، هي من
السنن التي في السماوات كلها، فالله سوى السماوات بعد أن خلق السماء،

فهي كانت في رحمها، قال تعالى (ثم استوى إلى السماء فقضاهن سبع سماوات).

فمن تلك السنن أنها كلها مبنية شديدة البناء، قال تعالى: (وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا)، وأنه لا فطور فيها، فخلق الرحمن محكم لا تفاوت فيه، ولا فروج. وأنهن طباق، قال تعالى: (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ)، وأنها مرفوعة بغير عمد مرثية (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا).

وتخصيص السماء الدنيا بعد ذلك (في آيات فصلت) بالحديث عن الزينة، يفيد أن الزينة بالمصابيح فيها دون سائر السماوات. كما سأوضح هذا.

(وسماؤنا الدنيا واحدة منها)، والسماء الدنيا هي واحدة من هذه السماوات السبع، وهي التي زينت بالمصابيح والكواكب، وهي التي زينت للناظرين، قال تعالى: (إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ)، وقد سميت بالدنيا لأنها أدنى السماوات، فهي السماء الأولى. وسأتحدث عن السماء الدنيا لاحقاً.

والمتدبر في القرآن الكريم يجد أنه سبحانه وتعالى تحدث في سورة فصلت عن تزيين السماء الدنيا بعد حديثه عن السماوات السبع، قال

تعالى: (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)، وكذلك في سورة الملوك: (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ). فالسياق يقول: سوى الله سبع سماوات، والسماء الدنيا منهن مزينة بالمصابيح. فلا ندري هل بقية السماوات مزينة كذلك أو لا، ولكن السياق يفهم منه الجواب بالنفي، وإلا لما كان لتخصيص السماء الدنيا بالذكر فائدة، فكان يقول: ولقد زيناهن، أو زينا السماوات، ولكنه يذكرها مقترنة بالسماء الدنيا.

كما يذكر سبحانه وتعالى في الآيات نفسه أن السماء الدنيا مع تزيينها بالمصابيح جعلها الله حفظاً، وفي سورة الملوك بين أنه جعلها رجوماً للشياطين، والذي أفهمه من ذلك والله أعلم بمراده أن الحفظ من الشياطين خاص بالسماء الدنيا دون بقية السماوات؛ ذلك أنهم لا يمكنهم تجاوز السماء الدنيا، ومن ثم فلن يبلغوا السماوات الأخرى. ولذلك قالت الجن: (وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا)، فهم

لسوا السماء لا السماوات، وحرست منهم بالحرس الشديد والشهب. ولهذا بيان في مكان آخر.

والسما الدنيا هي السماء التي فوقنا، ويمكن للإنسان أن ينظر فيها ويتفكر في خلقها وبنائها، قال تعالى: (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ)، وحين تحدث عن السماوات لم يقل: انظروا إلى السماوات، بل قال: انظروا ماذا في السماوات والأرض، قال تعالى: (قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)، وقال تعالى: (وَكَايِّنُ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)، وقال تعالى: (إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِمُؤْمِنِينَ). وسيتبين لنا بعد قليل دلالة هذه الآيات.

وهذا يعني أن السماوات الأخرى ليست في المجال المدرك للإنسان، فهي فوق السماء الدنيا. ويؤيد هذا الحديث النبوي الصحيح المتفق عليه (حديث المعراج، ومروره بالسماوات السبع).

الفرع الرابع: سبع طباق

ومما علمناه أنه خلق السماوات السبع طباقاً، قال تعالى: (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا)، وقال تعالى: (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا). إن ضم هاتين الآيتين إلى الآيات الأخرى التي تتحدث عن خلق السماوات والأرض،

يدلنا على أن السماوات متطابقة، بعضها فوق بعض، والله أعلم بالمسافات الشاسعة التي تفصل بين كل سماءين.

قال ابن تيمية: (وإذا كانت سماء الدنيا فوق الأرض محيطة بها فالثانية كروية وكذا الباقي. والكرسي فوق الأفلاك كلها والعرش فوق الكرسي ونسبة الأفلاك وما فيها بالنسبة إلى الكرسي كحلقة في فلاة والجملة بالنسبة إلى العرش كحلقة في فلاة. والأفلاك مستديرة بالكتاب والسنة والإجماع؛ فإن لفظ " الفلك " يدل على الاستدارة، ومنه قوله تعالى { وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } قال ابن عباس: في فلكة كفلكة المغزل. ومنه قولهم: تَفَلَّكْ ثدي الجارية إذا استدار).

فالأرض كروية، والكواكب والمجموعات الشمسية والمجرات كلها كذلك. والسماء الدنيا تحيط بما فيها، فهي دائرة كل ما فيها يقع داخلها. وكل سماء تحيط بالسماء التي تحتها، حتى السماء السابعة. التي يحيط بها الكرسي، قال تعالى: (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)، أي أحاط بها، والعرش فوق ذلك يحيط بسائر المخلوقات، ويؤيد ذلك ما فهمه بعض السلف من الحديث الذي في البخاري (فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن)، قال: الأوسط لا يكون الأعلى إلا في المستدير.

كما أنه يذكر خلق السماوات والأرض مقترنين باستمرار، وورد قوله (السماوات والأرض وما بينهما) ثمانية عشر مرة، وقوله (السماوات والأرض وما بينهما) مرتين، وقوله (يتنزل الأمر بينهن)، وذلك كله يفيد أن الأرض تقع في مركز دائرة السماء الدنيا، كموقع النواة بالنسبة للذرة، والسماء الدنيا تقع في مركز دائرة السماء الثانية... وهكذا. فالأرض تقع في مركز دائرة السماوات كلها. فلو أخذت قطرا من الأرض إلى السماء في أي جهة من الجهات لكانت مسافة (ما بين السماء والأرض) متساوية، ولو كان شيء غير الأرض يقع في مركز السماء لكان الاقتران به مع السماء لا بالأرض، ولعل هذا ما تفيدته الإشارة في قوله تعالى: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا)، أي: من أي جهة كانت تلك الأقطار، وهذا يفيد كون الشكل كرويا لها كلها، وكون الأرض في مركزها كلها.

وعلى هذا يجوز القول: الأرض في السماوات، بهذا الاعتبار، وهذا المعنى يتأيد بقوله تعالى في سورة نوح: (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا)، فقال: (فيهن)، أي في السماوات، وذلك بهذا المعنى. وإلا فالشمس والقمر في السماء الدنيا كما قال تعالى: (تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا). فشرف الأرض وكرمها لشرف الإنسان وكرمه،

فالإنسان هو أوسط (أفضل) مخلوقات الله، وقد استقر على الأرض التي جعلها الله وسط المخلوقات كلها.

وهذا يفسر قوله تعالى أيضا: (قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْطِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ)، وقوله تعالى: (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)، وقوله تعالى: (إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ)، وقوله: (وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)، وقوله (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ). فما في السماء هو بالضرورة في السماوات كلها، وليس العكس. كما يفسر قوله تعالى: (وَبَيْنَنَا وَفَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا)، فالسماوات كلها فوقنا بالضرورة، فما كان في مركز الدائرة فكل ما أحاط بها هو محيط به.

الفرع الخامس: (المسافات بين السماوات)

تحدث القرآن الكريم عن النسبية الزمانية، حيث تختلف دلالات اليوم زمانيا، فيوم كيوم من أيامنا، ويوم كألف سنة، ويوم كخمسين ألف سنة، وكلها لا نعرف مداها، كما ذكرنا من قبل. إلا أن ما أريد قوله هنا أن التدبر في آيتين قد يكشف لنا المسافات الشاسعة بين السماوات، وهما قوله تعالى في سورة السجدة (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)، والثانية قوله تعالى في

سورة المعارج (تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ).

فالتدبر فيهما يبين لنا ما يلي:

لقد ورد قوله (مما تعدون)، مرتين، وكلاهما حين ذكر اليوم (كألف سنة)، في سورة السجدة وفي سورة الحج (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ). ولم يذكر ذلك مع قوله (خمسين ألف سنة)، وسأبين الآن لماذا.

يكاد المفسرون قديما وحديثا يقولون أن المراد بالسماء في آية السجدة، هي السماوات العلى، أو أعلى السماوات، بالرغم من أن الآية صريحة (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض)، ولو شاء لقال (السماوات)، أو كما قال في سورة الطلاق (يتنزل الأمر بينهن). ولكنه قال (من السماء إلى الأرض)، والسماء في القرآن الكريم عرفنا دلالاتها، فيراد بها هنا: السماء الدنيا، ومن ثم فهو يتحدث عن تدبير خاص، وليس عن التدبير الذي يتم من فوق السماوات، الذي تحدث عنه في مواطن أخرى، كآية سورة الطلاق. فهذه الآية كقوله (يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا)، أي: من السماء الدنيا. ومن ثم فالتدبير الذي من السماء إلى الأرض ثم العروج إليه يكون في يوم مقداره ألف سنة مما نعد. وهذا هو مقدار اليوم عند ربنا، كما ورد في سورة الحج.

أما الآية الأخرى التي في سورة المعارج، فإنها تتحدث عن مقدار اليوم الذي تعرج فيه الملائكة والروح. والآية لم تذكر النزول والعروج (كما في آية السجدة)، وإنما ذكرت العروج فقط، كما أن الآية لم تحدد مكان الابتداء (لا نعرف من أين)، وإنما حددت مكان الانتهاء إليه (بخلاف آية السجدة التي حددت الابتداء والانتهاء (تدبير الأمر: من السماء إلى الأرض، ثم العروج إليه). ولعل نقطة الابتداء هي الأرض أيضا، أي تعرج من الأرض إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، وربما تكون السماء الدنيا، والله أعلم.

والذي أفهمه من هذه الآيات أن المسافة بين السماء (الدنيا) إلى الأرض هي الواردة في سورة السجدة، فالיום فيها مقداره ألف سنة مما يعد البشر. وقد ذكر لفظ (مما تعدون)؛ لأن السماء الدنيا داخلية في مدارك البشر فكان لهم اعتبار في الخطاب. أما الآية الأخرى (خمسين ألف سنة)، فإنها مقدار المسافة بين الأرض (أو السماء الدنيا)، وبين منتهى عروج الملائكة، وهو فوق السماوات السبع، ولا نعلم أين، ولكنه منتهى عروجهم (قد يكون عند العرش). وفي هذا لم يقل (خمسين ألف سنة مما تعدون)؛ لأنه يتحدث عن مسافات وأزمنة خارج مدارك البشر، فهي متعلقة بالسماوات السبع وما فوقها. وبذلك فنسبة المسافة بين الأرض والسماء الدنيا تعادل نسبة (١ : ٥٠) مقدار المسافة بين السماء الدنيا ومنتهى عروج الملائكة فوق

السموات السبع، أي أن منتهى العروج (فوق السماوات السبع) يبعد عن السماء الدنيا بمقدار ٥٠ ضعفا ما تبعد أقصى السماء الدنيا عن الأرض. وهي مسافات شاسعة، لا يمكن تصورها، فأخر ما عرفه العلماء وجود مجرات تبعد عنا بثلاثين مليار سنة ضوئية، وهذه داخل السماء الدنيا، فهي داخل اليوم الذي يمثل المسافة بين السماء والأرض.

ولا نستطيع أن نحدد مقدار اليوم، فبأي حساب نحسب اليوم، فالبشر بالأمس كانوا يحسبون اليوم بالساعة والثواني (اليوم القمري)... ثم ها هم اليوم يحسبون بالساعات والسنين الضوئية (اليوم الضوئي)... ولا ندري غدا ما الذي يمكنهم أن يصلوا إليه، وبأي حساب يحسبون.

المبحث الخامس: السماء الدنيا

المطلب الأول: مفهوم السماء الدنيا

كما بينت سابقا، فإنه لا يمكن لنا أن نتصور السماء الدنيا إلا إذا تصورنا السماوات السبع، والسماء الدنيا هي أدناها، ومن ثم فلا يصح أن نطلق لفظ السماء الدنيا على السماء التي كانت مخلوقة من قبل تسوية سبع سماوات، وقد سميتها (السماء الأولية)، وتحدثت عنها بما فتح الله علي به. والآن سأحدث عن السماء الدنيا.

وقد جاء الحديث عن السماء الدنيا في عشرة مواضع. واقترن بالحديث عن: زينتها، وحفظها، والبروج التي جعلها الله فيها، وكذلك المصابيح والنجوم والسراج والقمر، والليل والنهار.

وعليه يكون ذكر (السماء الدنيا) في ١٠ مواضع، هي: الحجر: ١٦، والفرقان: ٦١، والبروج: ١، والأنبياء: ٣٢، والصفات: ٦، وفصلت: ١٢، والملك: ٥، والجن: ٨، والطارق: ١، و١١.

وهذه الآيات تبين لنا حقيقة السماء الدنيا، وذلك كما يلي:

١ - السماء الدنيا هي إحدى السماوات السبع، وهي أدناها، كما تبين لنا سورة فصلت (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي

يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا
بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ).

٢ - كون السماء الدنيا زينة، زينها الله بالكواكب، وبالمصابيح.
وجعلها زينة للناظرين.

٣ - ما جعله الله في السماء من: البروج، والسراج والقمر،
والنجوم، والليل والنهار. (كما في سورتي الحجر
والفرقان).

٤ - كون السماء سقفا محفوظا. حفظها الله من كل شيطان
رجيم، وملاها بالحرس الشديد والشهب، وجعلها رجوما
للسياطين. فكونها محفوظا أي أنها ضد الاختراق، بل هي
مؤمنة محمية من جهتين، الأولى: من حيث الأجرام
والأشياء التي فيها، فهي محفوظة لا تتطاير ولا تقع على
الأرض (وَيُمَسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ).
والجهة الثانية: حفظ المعلومات والبيانات التي تقع في
نطاقها، فلا يستطيع (الهacker الأرضي) اختراق هذه
البيانات، ومن حاول التسلسل منهم إلى هذا النظام
المعلوماتي قذفته الشهب. فهي حماية ذاتية.

٥ - امتداد السماء الدنيا من محيط الأرض إلى ما لا نعلمه
من الآفاق، أما كونها تمتد من غلاف الأرض فلقول الجن
(وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا)،
وهنا الحديث عن السماء الدنيا، وهي المنطقة التي تنشط

فيها الشهب، ويستطيع الجن لمسها. وأما امتدادها إلى
الآفاق الواسعة التي تضم داخلها كل النجوم والبروج التي
اكتشفها الإنسان حتى الآن، فلاية سورة الحجر: (وَلَقَدْ
جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفَظْنَاهَا
مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ
شَهَابٌ مُبِينٌ)، فهو يتحدث عن السماء التي جعلها الله
محفوظة من الشياطين، وجعلها زينة، وجعل فيها بروجاً.

وسياتي الحديث عن (السماء) بمعنى: الغلاف الجوي للأرض.

أما لفظ (السماء الدنيا) فلم يذكر إلا في ثلاثة مواضع: الصافات
(إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحَفَظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ)،
وفصلت (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا
وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحَفَظْنَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)، والملك
(وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ). ففي
الثلاثة المواضع اقترن الحديث عنها بكونها مزينة بالمصابيح (وبالكواكب)،
وكونها محفوظة من الشياطين.



وعليه فالسماء الدنيا هي السقف المحفوظ الذي يمتد من نهاية غلاف الأرض، وتشمل الكواكب والنجوم والمجرات وغيرها مما هو بين السماء والأرض.

أما (السماء) التي هي بمعنى: الغلاف الجوي للأرض، فلا تسمى: السماء الدنيا، بل يبدأ حدود السماء الدنيا بنهاية الغلاف الجوي المباشر للأرض.

المطلب الثاني: ما في السماء الدنيا

سأحرر في هذا المطلب دلالات الألفاظ التالية: المصابيح، والكواكب، والبروج، والسراج، والشهب.

١/ المصابيح:

حققت دلالة المصابيح في كتابي (الظلمات والنور في القرآن الكريم)، وخلصته (مع بعض الزيادات والتحرير هنا):

كل مواد الجذر (ص ب ح)، تدل على اللون المشرق في ظلمة، وعلى إضاءة الظلمة بذلك اللون.

في القرآن الكريم جاء لفظ المصباح في آية النور، و(مصباح) في آيتين، قوله: (وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ)، (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ)،

فالمصباح دلالاته اللغوية: الشيء الذي يضيء الظلمة بلون مشرق. وفي القرآن الكريم تبين الآيات أن المصابيح زينة السماء الدنيا. وذلك أنها تضيئها بلون مشرق متألئ، فهي تزين السماء الدنيا بإضاءتها وتألؤها.

فالمصابيح هي زينة السماء الدنيا، حيث تضيئها بلونها المشرق المتألئ. وهذا بخلاف الكواكب، وقد فرق القرآن بينهما في قوله: (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ)، فلم يقل: زيننا السماء الدنيا بالكواكب،

كما قال بالمصابيح، بل قال: بزينة الكواكب، وقد احتار المفسرون في المجيء بلفظ (زينة) هنا، وعدها أكثرهم للتأكيد، فكأنه قال: بالكواكب. وقال بعض المعاصرين: المصابيح زينة بذواتها للسماء الدنيا، وهي النجوم، فهي تضيئها، أما الكواكب فهي زينة للسماء الدنيا، ولكن زينتها مستمدة من إضاءة المصابيح لها، فهي تعكس أضواء (المصابيح)، فاختلف اللفظ باختلاف الصفات.

وعندي أن الآية ليست للتأكيد، كما قال المتقدمون، فكل كلمة في القرآن الكريم لها دلالتها الخاصة بها. وأيضا فإن الآية لا تحتل ما يقوله المعاصرون، فهم يحملون الآية دلالة لا يحتملها التركيب. والدلالة التي يفترضونها هي من خارج اللفظ والسياق القرآني.

تركيب الآية: إنا زينا السماء الدنيا بالكواكب زينةً وحفظاً. فقوله (وحفظاً) معطوف على موقع (زينة)، وموقع: زينة: النصب على أنه مفعول لأجله، ولكنه قدم فجرّ، وبقي قوله (وحفظاً) منصوباً لأنه معطوف على موقع النصب. قال الزمخشري (وَحِفْظًا مِمَّا حَمَلَ عَلَى الْمَعْنَى لِأَنَّ الْمَعْنَى: إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظاً من الشياطين).

وعليه فالمعنى أن الله جعل الكواكب زينة للسماء الدنيا، وجعل الكواكب حفظاً للسماء الدنيا من كل شيطان مارد.

وأية سورة النور تبين أن الكواكب أجرام غير مضيئة بذاتها، ولكنها تعكس إضاءة غيرها، فهي زينة للسماء الدنيا. (راجع بحثي: الظلمات والنور في القرآن الكريم، عند تفسير آية النور، حيث فرق بين الكوكب الدرّي والمصباح).

وأما كون الكواكب حفظاً، فهو مثل كون المصابيح حفظاً (وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا).

فخلاصة دلالة المصابيح ما يلي:

أجرام مضيئة، تزين السماء الدنيا ليلاً بلونها المشرق المتألئ، وإضاءتها. كما أنها تحفظ السماء الدنيا من الشياطين.



٢/ النجوم:

ولكن هل المصابيح هي النجوم؟

بتدبر الآيات التي ذكر فيها (النجم)، (النجوم)، نتبين ما يلي:

١ - النجوم مضيئة: فحين يتحدث عن قيام الساعة يتحدث عن ذهاب ضوء النجوم (فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ)، أي: ذهب ضوءها، (وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ)، أي: تغيرت ألوانها المشرقة المتألئنة،

التي كانت تزين السماء وتضيئها، وانكدارها بسبب ذهاب
ضوئها.

٢ - النجوم هداية: القرآن الكريم يتحدث عن النجوم كونها
هادية للناس، (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي
ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)، (وَيَالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ). فهي هادية
لهم يهتدون بها في ظلمات البر والبحر، ويحددون بها
مواقعهم ومواسمهم على الأرض، كما أنها هادية لمن في
السماء، فالنجوم مصدر هداية لكل من يمر عبر السماء
الدنيا.

٣ - التسخير: بين القرآن الكريم أن النجوم مثلها مثل الشمس
والقمر مسخرات بأمر الله (وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ
مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ).

٤ - النجوم ذات مواقع: (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ
لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ). فتبين الآية أن للنجوم مواقع في
السماء الدنيا، هناك مليارات مليارات النجوم في السماء
الدنيا، وهي ذات أحجام هائلة، وكل نجم له موقعه، فلا
يبغي نجم على نجم آخر، بل يأخذ موقعه في السماء الدنيا،
ومداره الذي يسبح فيه، وهي مواقع تتحرك فيها النجوم
ولا تظل ساكنة، وتحفظ بعلاقات متوازنة.

٥ - وقت إدبار النجوم طلوع الفجر: قال تعالى: (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ
رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨)

وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ). وهذه الآية نفهمها بالموازنة مع الآيات الأخرى التي تتحدث عن الصلوات الخمس، صلوات النهار (الظهر والعصر)، وصلوات الليل (المغرب والعشاء)، وصلاة الفجر. لراجع بحثي: الغيب والشهادة في القرآن. فقولته (فسبح بحمد ربك حين تقوم)، أي: حين تكون مستيقظا في النهار، وذلك في صلاتي الظهر والعصر. (ومن الليل فسبحه)، أي: صلاتي المغرب والعشاء. و(إدبار النجوم)، أي: وقت صلاة الفجر. فالنجوم تدبر حين يقبل الفجر.

٦ - النجم يسجد لله (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ).

٧ - وصف الدورة النجمية: النجم الثاقب (وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ). والنجم يهوي ويسقط: قال تعالى: (وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ).

وبالعودة إلى المعاجم اللغوية، (نجم الشيء)، أي: طلع وظهر، يقال: نجم السن: طلع وظهر. فالنجوم التي في السماء هي الأجرام المضيئة التي تظهر للناس في الليل، وتدبر حين يأتي النهار. فالنجوم تتميز بالخواص التالية، كما تبين الآيات: أجرام مضيئة تطلع في الليل، وتختفي مع طلوع

الفجر (وهذا بالنسبة إلى الإدراك البصري لأهل الأرض)، وتكون في الليل هادية للناس. والنجوم ذات حركة ومدارات في السماء، ولكل نجم موقعه الذي لا يبغي به على نجم آخر.

وتبين الآيات بعض الخواص النجمية، ومن ذلك (النجم الهاوي)، هوى الشيء: إذا سقط في انحدار، فكأن القوى التي كانت تمسكه تخلت في تلك اللحظة عن إمساكه، فسقط منحدرًا، ولذلك يقال للرجل إذا سقط من قمة الجبل أو أي مرتفع: هوى الرجل، أي سقط في مجال لا يناسب أن تكون حركته فيه، فلو وقع على الأرض لقلت: وقع على الأرض، ولا تقول: هوى على الأرض، إلا إذا كان السقوط من مرتفع فيمر بمجال جوي لم يهياً الإنسان لأن يكون فيه. فهوى النجم إشارة إلى لحظة خروجه عن مداره، أو انتهاء عمره، بحيث لم يعد يتحرك في موقعه الذي كان يسبح فيه، فهي لحظة ترسم تهالك النجم وسقوطه وانتهاء عمره. والنجم يهوي بعد أن يفقد وظيفته في الإضاءة والهداية، فيهوي ليرتطم بجسم آخر، كما يهوي الرجل من قمة الجبل فيرتطم بالأرض.

ويتحدث القرآن الكريم عن انتهاء النجم، ببيان ثلاث خواص: الضوء، واللون، والحركة. أما الضوء فيطمس (فإذا النجوم طمست)، وطمس الضوء يبين أن وقود الإضاءة ينتهي فلا يعود مصدرا للضوء. ثم

يحدث أن يتكدر لونه (وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ)، فلا يراه الناظر، وقد كان مشرقاً متألئناً. ثم يهوي الجرم (وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَى).

وكذلك (الطارق: النجم الثاقب)، فذكرت الآيات خاصتين للنجم، إحداهما صوتية والأخرى بصرية، أما الصوتية فهو أن له صوتاً يطرُق كالمطرقة، والخاصة الثانية أن ضوءه ثاقب، أي شديد اللمعان، كما أنه يثقب أي جسم أمامه.



والآن هل النجوم هي المصابيح؟

المصابيح كما سبق: أجرام مضيئة، وظيفتها تزيين السماء الدنيا. والقرآن الكريم لم يذكر عن المصابيح سوى هاتين الصفتين: زينة السماء الدنيا، تضيئها بلونها المشرق المتألئ. وحفظها للسماء الدنيا من الشياطين.

أما النجوم فتبين من القرآن الكريم أنها أجرام مضيئة، هادية للناس، تظهر لهم في الليل، وتختفي مع النهار. وتحدث القرآن الكريم عن حركتها ومداراتها ومواقعها، وانتهائها. ولم تذكر الآيات أن النجوم تحفظ السماء الدنيا من الشياطين.

وعليه فالشمس لا تسمى نجماً؛ فالشمس تظهر للناس نهاراً
وتختفي ليلاً، بخلاف النجوم.

وكذلك لا تسمى الشمس مصباحاً؛ فالمصباح لا يزيل الظلمة
التي في السماء، بل تكون إضاءته زينة لها، ومع ظلمتها تتبين إشراقه لونه.
ثم إن الله بين أنه جعل المصابيح زينة للناظرين، والشمس لا يستطيع
الناس أن ينظروا إليها. فالزينة إذن أن تكون هناك إضاءة متألثة وسط
ظلمة، وبذلك يتبين جمال الزينة وإشراقها. وعليه فالزينة تكون ليلاً لا
نهاراً.

والكواكب ليست نجومًا، فالكواكب أجرام غير مضيئة، أما النجوم
فأجرام مضيئة. وكلها تشترك في أنها تظهر ليلاً وتختفي نهاراً، وذلك
بسبب اختفاء ضوء الشمس ليلاً، مما يمكن العين البشرية المجردة أن ترصد
النجوم والكواكب (التي تعكس ضوء النجوم).

مما سبق يتبين أن المصابيح: أجرام مضيئة، تزين السماء الدنيا
ليلاً، وتحفظها من الشياطين.

ووصف الإضاءة والزينة ينطبق على النجوم وعلى أي أجرام سماوية
ينبعث منها الضوء الذاتي فيراه أهل الأرض.

وبهذا فالمصابيح هي الأجرام المضيئة التي تزين السماء الدنيا. أما النجوم فهي الأجرام المضيئة ليلا ، وأما الشمس فهي الجرم المضيء نهارا، وأما الكواكب فهي الأجرام غير المضيئة التي تظهر ليلا. (من منظور أهل الأرض)

فما الفرق بين المصابيح والنجوم؟

النجم يسمى مصباحا في حال إضاءته، وإشراق لونه في السماء الدنيا، وحين يفقد صفتي الإضاءة (بالطمس) والإشراق (بالانكدار)، فلا يسمى مصباحا، بل يحتفظ باسمه: النجم.

فالمصابيح هي الأجرام السماوية في حال إضاءتها وإشراق ألوانها، فهي تكون زينة للسماء الدنيا ما دامت متصفة بهاتين الصفتين: الإضاءة وإشراق اللون.

وعليه فبين النجم والمصباح عموم وخصوص وجهي، فالنجم يسمى مصباحا في حال إضاءته وإشراقه. ولا يسمى مصباحا في الحالات الأخرى. والمصباح يشتمل على النجم وغيرها من الأجرام في حال إضاءتها وإشراقها.

والذي يجعلنا نفرق بين المصباح والكوكب: آية سورة النور (مَثَلُ نُورِهِ كَمَشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ فِي زُجَاجَةٍ زُجَاجَةٌ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ

دُرِّيُّ)، فثمة تفريق واضح بين المصباح والكوكب... (راجع بحثي: الظلمات والنور في القرآن الكريم).

٣/ الكواكب:

الكوكب، ذكر في القرآن الكريم في مواطن عدة:

أولها: في آية النور (الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ). وقد تحدث عنه في كتاب (الظلمات والنور في القرآن الكريم)، وخلاصة ما ذكرته:

(كوكب دري)، أي: متلألئ كتلألؤ الدرّة، ويحتمل معنى الاستدارة أيضا، كالزيتونة أو البيضة، وأيضا شفافية غلافه الجوي، كشفافية الزجاج، فيسمح بنفاذ الضوء.

كما أن الدرّي من الحركة أيضا، فهو الذي يدور بشدة فيظن الناظر إليه أنه واقف من شدة دورانه. وتشبيه الزجاجة به يعني أنه ليس مضيئا بذاته، فالزجاجة لا تضيء ولكنها تقوي ضوء المصباح، وتعكسه، وتسمح بنفاذه، وكذلك الكوكب الدرّي لا يضيء بذاته، ولكنه يعكس الضوء من مصابيح السماء، ويسمح بنفاذ الضوء، كما أن غلافه الشفاف يجعل من الإضاءة داخله قوية جدا، كما تجعل الزجاجة الإضاءة داخلها شديدة.

ثانيها: في سورة الأنعام: قول إبراهيم: (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَأُحِبُّ الْأَفْلِينَ).

فالآية تدل على أن الكوكب لا يرى إلا في الليل، (حين يجن الليل)، ثم يختفي عن مدى الإدراك البصري مع طلوع النهار. كما تدل الآية على أن الكوكب جرم يختلف عن الشمس (التي ترى في النهار)، وعن القمر (الذي يرى في الليل).

وذكرت الكواكب في آية الصافات (إِنَّا زَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ)، وتحدثت عنها آنفاً.

ورابع المواطن في سورة الانفطار (وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ). فالآية تتحدث عن الكواكب بصفاتها أجراماً، وليس بصفاتها مصابيح مضيئة، فهي تنتشر في السماء كما تنتشر الأجرام. أما حين تحدث عن النجوم فقال: (فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ)، أي: طمس ضوءها، وقال: (وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ)، أي: انكدرت الألوان المشرقة المتألثة التي كانت تنبعث منها. فالنجوم كتل ضوئية، أما الكواكب فهي أجرام غير ضوئية. وفي آية النور يبين أن الكوكب جرم دري، تشبهه الزجاجاة، فهو يعكس الضوء، ولا يضيء.

وعليه فالكوكب جرم سماوي ذو غلاف شفاف يسمح بنفاذ الضوء،
بيضاوي الشكل أو دائري. يعكس ضوء غيره من المصابيح فيكون زينة
للسماء الدنيا.

٤/ السراج:

تحدثت عن الفرق بين دلالات: الضياء، والسراج، والوهاج في كتابي
(الظلمات والنور في القرآن الكريم)، فليرجع غليه، وخلاصة ما ذكرته
هناك:

الضوء: شيء ينبعث من مصدر محسوس مضيء، فيحدث النور،
وئمكن الرؤية.

و(الضياء)، هو المصدر المحسوس الذي ينبعث منه الضوء والحرارة،
فالشمس ضياء، والنار ضياء، فالضياء مصدر يضيء. فهي مصادر تحرق
الوقود، فتشتعل، فينتج عنها الضوء والحرارة أيضاً. وهو لا يحدث النور
فقط، بل يحدثه ويحدث الحرارة.

فالضياء = سراج + وهاج، قال تعالى: (وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا)،
فالسراج هو المصدر المضيء فقط، والوهاج هو مصدر الحرارة فقط، قال
الخليل: (الْوَهَجُ: حر النار والشمس من بعيد)، وقال صاحب الصحاح:
(توهجت النار: توقدت).

ولذلك لم يسم الله نبيه بالضياء، بل سماه بالسراج المنير (وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً)، فهو سراج ينشأ عنه النور (سراج منير). وعليه فمصباح الإضاءة الذي ينتج الضوء فقط دون حرارة يسمى: سراج، أما الذي ينتج الضوء والحرارة فيسمى: ضياء.

ولذلك نجد أن القرآن الكريم حين يجمع الشمس والقمر يسمي الشمس سراجاً، والقمر نورا، فلم يقل (سراجاً وهاجاً)؛ لأن الحديث عن الضوء فحسب، ومن ثم فرق بينهما، فالشمس سراج: (مصدر ذاتي للضوء)، والقمر نور: (مصدر عاكس للضوء)، قال تعالى: (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا)، وقال: (وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا)، وحين أفرد الشمس بالذكر قال: (وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا).



وعليه فإن القرآن الكريم يطلق لفظ (الشمس)، ويريد بها الجرم المعروف، دون نظري في ما يتصف به من صفات: الإضاءة والحرارة. فإذا أراد الحديث عن صفة الإضاءة فقط، فإنه يسميه السراج، وإذا أراد الإشارة إلى صفة الحرارة، فيسميه: الوهاج. وإذا أراد الإشارة إلى الإضاءة والحرارة، سماه: الضياء.

ومما يدل على هذا أن لفظ (الشمس) ذكر في القرآن الكريم ٣٣ مرة، على النحو التالي:

- الحديث عن أن الشمس مخلوق من مخلوقات الله، وأنها مطيعة ساجدة لربها.
- الحديث عن حركة الشمس من المشرق إلى المغرب، بالنسبة إلى سكان أهل الأرض.
- الحديث عن تسخير الشمس والقمر وغيرها من المخلوقات.
- الحديث عن جعله الشمس والقمر حسابا للناس، وكذلك جعلها ميقاتا للصلوات، وكذلك جعلها دليلا للظل.
- الحديث عن حركة الشمس، وجريانها، وسبحها في الفلك، في توازن مع السابحات الأخرى.
- الحديث عن نهاية الشمس مع الأجرام السماوية الأخرى.
- الحديث عن أن الشمس هي من النظام الدنيوي، وأما أهل الجنة فلا يرون شمسا ولا زمهريرا، بل يكونون في (ظل ممدود).



واقترن الحديث عن الشمس مع الإضاءة في قوله:

(وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا)، وقوله: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا).. فهاتان الآيتان تبينان أن الله سبحانه وتعالى جعل الجرم الشمسي ذا صفات خاصة من الإضاءة والحرارة، فجعل

لها من قوة الحرارة والإضاءة ما ينتفع بها الناس، وتنتفع بها كل الكائنات التي على الأرض. وليس هنالك جرم في السماء الدنيا يمنح الناس الضوء والحرارة كالشمس. ربما تكون هناك أجرام أخرى ذات حرارة وإضاءة أشد، ولكنها لم تسخر لأهل الأرض كما سخرت لهم الشمس.

ومن ثم فلا يطلق لقب (السراج الوهاج)، أو (الضياء) في القرآن الكريم إلا على الشمس. فالقرآن الكريم لا يتحدث عن حقائق فلكية مجردة، ولكنه يتحدث عنها في حال نفعها للناس، وارتباط منافع الناس بها.

هنالك مصابيح، وهنالك نجوم، وهنالك كواكب تملأ السماء الدنيا، فتزينها، وتجعل صفحتها السماوية متألئة بها. ولكن الشمس ليست مجرد زينة، هي زينة، وسراج وهاج لأهل الأرض يزودهم بالحرارة والإضاءة اللازمة لصلاحية الحياة فيها.

وعليه فالشمس لا تسمى (مصباحا) ولا تسمى (نجما)، بل تسمى: ضياء، وسراجا وهاجا. والقرآن الكريم لم يبين أن الله جعل الشمس زينة للسماء الدنيا، بل سخرها للناس، لتكون لهم حسابانا، وميقاتنا، وينتفعون بضيائها (سراجا وهاجا).



وقوله: (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا)

فأضاف الضحى إلى الشمس، واختلف المفسرون في المقصود بضحى الشمس، قال الزجاج ومجاهد: الضياء، وفسرها مقاتل والسدي: حرها، وقال قتادة: النهار كله.

وقد حققت في بحثي (دراسة معجمية لخمسة ألفاظ في القرآن الكريم) أن مفهوم الضحى مفهوم دلالي يرتبط بعنصر: الضياء، فالضياء يكون فيه وضوح الأشياء وبروزها. والضياء كما بينت في بحث (الظلمات والنور) يجمع بين عنصري: الحرارة والضوء، فهو يُحدث النور ويحدث الحرارة أيضاً. والقرآن الكريم يبين باطراد أن الله جعل الشمس ضياءً. فقوله هنا (والشمس وضحاها) يعني: وضياؤها (وفي الضياء: ضوء وحرارة). ويضعف تفسيره بالنهار؛ لقوله بعد ذلك: (والنهار إذا جلاها)، فلا يستقيم التفسير لو قلنا: والشمس ونهارها، والنهار إذا جلاها.

ومقابلة الضحى بالليل، والليل هو وقت الظلام، فالضحى هو وقت الضياء، سائر النهار، بل أطلقت العرب على الليالي القمرية: ضحيانة، فوصفتها بالضحو، وذلك دلالة على أن الضحى: الضياء. وتخصيص بعض وقت النهار بالتسمية (وقت الضحى) لأمرين أنه أشد أوقات النهار إضاءة، وأشدّها حرارة.



٥/ البروج

في مقاييس اللغة أن البرج له دالتان: الأولى: الظهور والبروز،
والثانية الملجأ لغيره.

وبتتبع استخدام العرب للفظ، يمكن رد دلالاته إلى دلالة واحدة،
وهي: الظهور المرتفع على غيره، مع سعة وعدم ضيق (انظر لسان العرب)،
ولذلك سمي البرج برجاً؛ لأنه بناء ظاهر مرتفع على غيره من الأبنية،
وكل الأبنية تكون داخله. فهو البناء الظاهر البارز.

وجاء في القرآن الكريم في ثلاث آيات بيان أن الله جعل في السماء
بروجاً (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ)، وقوله: (تَبَارَكَ
الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا)، وقوله:
(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ).

نلاحظ أولاً أن الآيات تستخدم لفظ (جعل في السماء)، فلا تتحدث
أن البروج زينة للسماء الدنيا (كالمصابيح والكواكب)، ولا تتحدث عن
كونها هداية أو مضيئة.. (كالنجوم)، بل الحديث أن الله جعل في السماء
بروجاً، كما جعل فيها سراجاً وقمرًا منيراً.

ونلاحظ ثانيا، أن السماء وصفت بكونها (ذات البروج)، كما وصفت بكونها (ذات الحبك). ولم يرد أن السماء (ذات النجوم)، أو (ذات الكواكب). وهذا يدل على أن الحبك والبروج كلاهما معلمان مميزان للسماء. وقد تحدثت عن (الحبك).

الحديث عن (البروج) يبين أنها شيء آخر مختلف عن النجوم والكواكب والمصابيح.

البرج في العربية قيل هو الحصن، وقيل السور الذي حول المدينة، وقيل البيوت التي تبني على السور، وقيل: القصور، وقيل القلاع... إلخ.

وبالعودة إلى الثقافة العربية والاستخدام للفظ البروج، نجد أن البرج يتميز بكونه:

(١) بناء مرتفعا على غيره من الأبنية،

(٢) أبنية كالقلاع تبني على جدران طويلة، أو بنايات متجمعة.

(٣) البروج تمثل حدودا واضحة لما يدخل في مساحتها من أبنية.

ولذلك فهي معالم على غيرها من الأبنية.

(٤) تبني البروج الحربية على الأسوار، فتكون أبنية مرتفعة

للمراقبة والحماية، وتستعمل لأغراض دفاعية عادة.

من هنا فإن بروج السماء تعني:

أبنية هائلة الارتفاع في السماء، تتصل بجدران سماوية هائلة، وكل برج يضم في مجاله السماوي كثيرا من الأجرام السماوية (كالكواكب والنجوم، وغيرها من الأجرام). فبروج السماء تمثل معالم بنائية ضخمة في السماء، وتتصل بعضها ببعض، وبمجموع هذه البروج تتشكل البنية السماوية.

السماء ذات الحبك، والسماء ذات البروج.

أما البروج فتمثل المعالم الضخمة في السماء، وأما الحبك فتبين طريقة اتصال البنيان السماوي وارتباط بعضه ببعض. فهو بنيان نسيجي ممتد محبوك، تقع البروج على طول هذا النسيج (كما تقع البروج على الجدران في الأرض)، وكل برج يمثل معلما في السماء يضم ما لا نحصيه عدداً من الأجرام.



٦/ الشهب:

جاء ذكر الشهب في القرآن الكريم عند الحديث عن حفظ السماء

من الشياطين، في الآيات التالية:

- { وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ } (سورة الحجر ١٦ - ١٨)
- { إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحَفِظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لَّا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ } (سورة الصافات ٦ - ١٠).
- { وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مَلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَصَدًا } (سورة الجن ٨ - ٩).
- { وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } (سورة فصلت ١٢)
- { وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ } (سورة الملك ٥).

تبين الآيات التي تحدثت عن الشهب ما يلي:

- ١ - الوظيفة: جعل الله الشهب وسيلة لحفظ السماء من الشياطين الذين يسمعون إلى الملائم الأعلى.

- ٢ - صفات الشهاب: وصف الشهاب بأنه (مبين)، أي: بين واضح ظاهر للعيان. (ثاقب)، ثاقب شديد الضوء واللمعان، وثاقب يثقب الجسم الذي يصل إليه.
- ٣ - موقع الشهب: في السماء الدنيا.
- ٤ - تبين الآيات أن الكواكب والمصابيح جعلهما الله زينة للسماء الدنيا، وحافضة لها، فكلاهما فيه عنصران: الزينة والحفظ. ولتكوين الشهب صلة بهما، فهي أجسام تنقذف من الكواكب أو من المصابيح.
- ٥ - حركة الشهب: تبين الآيات أن الشهب (تتبع) الشياطين، وأنها مقذوفات (يقذفون)، وأن اتجاهها في (كل جانب)، وأنها راجمات (رجوما).
- ٦ - وتبين الآيات أن في الشهب قدرة ذاتية على رصد الشياطين، وبذلك فهو ينطلق ذاتيا (شهابا رسدا)، وقد يكون ثمة علاقة بين تركيب جسم الشيطان وتحفيز انطلاق الشهاب. فالرصد هو الاستعداد للترقب (كما عند الراغب). وقد ذكر (الرصد) مرتين في سورة الجن، المرة الأولى وصف به الشهاب (شهابا رسدا)، والمرة الثانية وصف به الحرس الذين يسلكهم الله بين يدي الرسول (إِنَّا مِنْ أَرْضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا). فالشهب رصد، وقد تكون الشهب من الرصد التي ترصد الملك النازل بالغيب، فيقذف الله بها الشياطين.

- ٧ - وبذلك يتبين أن الشهب من جنود الله، وكما أنها ذات علاقة تنافرية مع الشياطين، ففيها قدرة ذاتية للانطلاق باتجاه الشياطين ورجمهم تلقائياً. فكذلك فيها خاصة تكاملية مع الملائكة، ولذلك فهي من الرصد الذين يحرسونهم، وهي تقوم بمهمتها التكاملية مع (الحرس الشديد) (فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا).
- ٨ - تبين الآيات أيضاً، أن الشهب ازدادت بمجيء رسالة محمد صلى الله عليه وسلم (وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا (٨) وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا)، فهم كانوا يقعدون مقاعد للسمع، أما الآن (أي من زمن البعثة) فقد اختلف الوضع معهم، (فثمة الشهب الرصد). وسورة الجن هي السورة التي تتحدث عن أمر غريب أهمّ الجن فبحثوا عنه، فوجدوا أنه بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، وهي السورة التي تبين حفظ الله للوحي والغيب وللرسل التي تحمله، حتى يبلغوه.

المطلب الثالث: زينة السماء الدنيا:

سائر الآيات القرآنية الأخرى التي تتحدث عن الزينة تخصصها بالسماء الدنيا، وأنها حدثت لها - كما يبدو - بعد تسوية السماوات السبع؛ فلا يمكن أن نتصور السماء الدنيا إلا إذا تصورنا السماوات السبع، وهو ما يفيد سياق الآيات الواردة فيها ذلك، كما سآبين لاحقاً، حيث تذكر زينة السماء الدنيا بعد تسوية السماوات السبع.

تزيين السماء ورد في خمسة مواضع، في ثلاثة منها تقترن بالسماء الدنيا، كما تقترن بجعلها حفظاً من الشياطين، كما تقترن بالمصابيح (في موضعين) أو الكواكب (في موضع واحد). وفي الموضع الرابع اقترنت بالبروج وبكونها زينة للناظرين، وكل هذه خاصة بالسماء الدنيا. وفي الخامس في سورة ق، وقد سبق الكلام عليها.

بتدبر آيات الأنبياء: (أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)،

نجد أنها تتحدث أولاً عن مرحلة الرتق والفتق، وهي للسماء الأولية، ثم عن فرش الأرض وتهيئتها، وهذه تمت قبل تسوية السماوات وبعد بناء السماء الأولية، ثم يتحدث عن جعل السماء سقفا محفوظا، وإعراض الناس عن آياتها، وخلق الليل والنهار والشمس والقمر، وهذه كلها في السماء الدنيا، وهي من الزينة التي زينها الله بها بعد تسوية السماوات السبع.

وبالتدبير في القرآن الكريم نجده يتحدث عن الليل والنهار والشمس والقمر بعد حديثه عن خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام؟ فلماذا؟

في سورة يونس: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ). فتحدث عن خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثم استواؤه على

العرش، ثم بعد ذلك عن جعل الشمس ضياء والقمر نورا، ثم تحدث عن اختلاف الليل والنهار، والآيات التي في ذلك كله.

وفي سورة الفرقان: (الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (٦٠) تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا). فبعد حديثه عن خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، تحدث عن البروج التي جعلها في السماء والسراج والقمر، واختلاف الليل والنهار.

فسياق الآيات يفيد أن تزيين السماء الدنيا بالمصابيح والكواكب، وأن جعله في السماء البروج والسراج والقمر المنير، ووضع سنن الليل والنهار فيها، وكل ذلك إنما كان بعد تسوية السبع السماوات. كما يفيد أن هذه كلها خاصة بالسماء الدنيا: البروج، والسراج، والقمر المنير، والليل والنهار. دون سائر السماوات. والله أعلم بمراده.



آيات الزينة:

١ - {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦)
وَحَفِظْنَاَهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ
السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (١٨)} [سورة الحجر]

٢ - {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحَفِظْنَا مِنْ
كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ} [سورة الصافات]

٣ - { فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ
أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ
الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } [سورة فصلت]

٤ - { وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا
لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ } [سورة الملوك]

وأما آية سورة ق { أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا
وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ } [سورة ق]، فقد سبق الحديث عنها عند السماء
الأولى.

بتدبر هذه الآيات نجد ما يلي:

أولاً: اقتران جعل السماء زينة بحفظها من الشياطين.

ثانياً: تبين الآيات أن الله جعل السماء الدنيا زينة، فالحديث خاص

بالسما الدنيا، وآية سورة فصلت صريحة في ذلك.

ثالثاً: تبين الآيات أن الله جعل زينة السماء الدنيا ب: الكواكب،
وبالمصابيح. (الكواكب: سورة الصافات. والمصابيح: سورتا فصلت والملك)،
وفي سورة الحجر بين الله أنه جعل السماء زينة للناظرين. أي لمن ينظر
إليها.

ولم يرد في آية أن الله زين السماء بغير الكواكب والمصابيح. أما
حين يتحدث عن الشمس والقمر والبروج، فإنه يبين أنه جعل هذه الأشياء
في السماء، ولا يتحدث أنه زين السماء بهن.

وقد تحدثت آنفا عن زينة السماء الدنيا وحفظها فأكتفي بما
قدمته هناك.

المبحث السادس: السماء: الغلاف الجوي للأرض، وما

علا الإنسان من الأرض

في القرآن الكريم أكثر من ست وستين آية جاء فيها الحديث عن السماء، بوصفها ما علا الإنسان من الأرض، ويشمل ذلك الغلاف الجوي للأرض. والنظر في هذه الآيات يمنحنا الحقائق التالية عن السماء:

الأولى: التفريق بين دلالات السماء

تفرق الآيات الكريمة بين الدلالات المختلفة للسماء، فهي ليست ذات دلالة واحدة، ومن ذلك:

قوله تعالى: (وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) مع قوله (فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ)، ففي الأولى بين أن السحاب بين السماء والأرض، وفي الثانية بين أن السحاب في السماء. وهذا يبين أن ثمة سماءين، ففي الأولى يتحدث عن السماء التي هي فوق الغلاف الجوي للأرض، أما في الثانية فيتحدث عن السماء التي هي الغلاف الجوي للأرض، والتي ينشأ فيها السحاب.

قوله تعالى: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ)، فذكر السماء مرتين، فهل هنا تكرار؟ قد يقول قائل لم لم يعد الضمير، فيقول: جعل الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل منها ماء. ولكنه قال: (وأنزل من السماء ماء). فأعاد اللفظ لاختلاف الدلالة بين السماء الأولى والثانية، فالأولى هي السماء الأولى المبنية، وهي التي يبين الله سبحانه وتعالى أنه بناها (وقد تحدثت عنها). أما الثانية فهي الغلاف الجوي للأرض، وهي المجال الجوي الذي تنشأ فيه السحب فينزل منها الماء. فكرر اللفظ لاختلاف الداليتين.



الثانية: السماء بناء، وليس فراشا

تبين الآيات أن السماء شيء مبني، هذا الشيء مجال يمكن لمسه، وله أبواب تفتح وتغلق، وهو مدى يصعد فيه الإنسان، ومن تلك الآيات:

أبواب السماء: (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ)، وقوله: (لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ)، وقوله: (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ). وأبواب السماء تفتح لثلاثة أمور: الأول: نزول الخير والبركات على أهل الأرض، من ماء ورزق وغيره. والثاني: لإمكانية عروج أهل الأرض في السماء، لو توفرت لهم السبل. والثالث: ستفتح يوم القيامة

فيخرج المؤمنون من أبواب السماء وتظل لهم حتى يدخلوا الجنة، والجنة خارج مدى السماوات والأرض (إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَأَنفُثَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَأَن يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ)

خر من السماء: (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ)، والإنسان لا يخر إلا من شيء يمكنه أن يقف عليه.

الصعود في السماء: (وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ)، وقوله: (أَوْ تَرَفَى فِي السَّمَاءِ)، وقوله: (مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ)، وقوله: (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ). وكل الآيات التي ذكر فيها الصعود إلى السماء جاءت في مقام بيان الضيق والحر، سواء الضيق من الإسلام، أم الضيق من رسالة النبي صلى الله عليه وسلم.

وتبين الآيات أن السماء ليس فراغا، بل مجال له سننه وخواصه التي تختلف عن سنن الأرض، فمثلاً، السحب تتكون جبالياً في السماء (وَيُنزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ).

الثالثة: السماء بمعنى الغلاف الجوي للأرض

وهي المجال الذي تنشأ فيه السحب، وينزل منه الماء، وتطير فيه الطيور. وقد تحدثت آيات كثيرة عن هذا المجال، ومن ذلك:

السماء هي المدى الذي تنشأ فيه السحب: (اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ)، وكذلك المدى الذي يرسل الله فيه الرياح فتحمل السحب وتلقحها: (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ)

وهي المدى الذي ينزل منه الماء إلى الأرض، حيث تتكون السحب: (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً)

وهو المدى الذي تطير فيه الطيور: (أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ).

الرابعة: السماء نفسها رزق:

تبين الآيات أن السماء نفسها رزق، فالله جعلها رزقا للبشر، وجعل فيها رزقا لهم أيضاً، فهما شيئان مختلفان.

فمن الأول قوله: (يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا)، أي: دارةً بالأرزاق المختلفة، الماء وغير الماء من أرزاق نعلمها أو نجهلها، فالسماء مليئة

بالأرزاق... الضياء رزق من أرزاق الله الذي يأتي من السماء، فلولا السنن التي أودعها الله في سمائنا لما انتفعنا بضياء الشمس، لا بضوئها ولا بحرارتها، وهو رزق عظيم ينتفع به أهل الأرض... الليل نفسه رزق، مفهوم الرزق واسع لا حدود له.

وبين الحق سبحانه وتعالى أن السماء والأرض مليئة بالبركات والنعمة للناس، (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ).

وقد سأل الحواريون ربه أن ينزل عليهم مائدة من السماء، فنزلت المائدة منها: (قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ). فالسما التي نزلت منها المائدة هي مخزن أرزاق الناس، وهي هذه السماء التي فوقهم، التي تمتد من الغلاف الجوي الأرضي فما فوقه.

ومن الثاني قوله: (وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً)، وقوله: (وَيُنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)، وقوله: (وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا). وتحدثت عنه سابقاً.

الخامسة: السماء مجال سيصل إليه الإنسان

تبين الآيات أن السماء مجال يمكن أن يبلغه الإنسان، متى امتلك أدوات العلم، قال تعالى: (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)،

فالمعنى: أيها البشر لن تعجزوا الله في الأرض التي أنتم عليها، وحين تصلون إلى السماء فلن تعجزوه أيضاً.

السادسة: السماء مخزن الرزق، ومخزن العذاب للبشر أيضاً:

تبين الآيات أن قدر البشر أن السماء جعل الله فيها أرزاقهم، وجعل فيها عذابهم أيضاً، فكثير من العذاب يأتي الناس من السماء، كما قال:

(فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ)، وقوله: (فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ)، وقوله: (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ)، وقوله: (إِنْ نَشَأْ نُخَسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ).

وبيين الحق سبحانه وتعالى أن السماء مسكن لجنود الله الذين لا نعلمهم، ويستجيبون لأمره، وعلى البشر أن يعوا هذه الحقيقة، فلا يغضبوا ربهم؛ وكيف يغضبونه وهم لا يعلمون جنوده، قال تعالى: (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ). ف(من في السماء) هم جنود الله الذين (يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون). فلو شاء الله لأمرهم فخسفوا الأرض باهلها، أو أرسلوا عليهم حاصبا. وقد تقدم الحديث عن الشهب، وكيف انها تعمل بنظام تلقائي ذاتي، كما تفيده الآيات. فنحن لا نعلم من في السماء فكيف نأمنهم؟! حين يحارب الإنسان عدوا لا

يعلمه، أو لا يعلم إمكاناته وقدراته فإنه خاسر لا محالة. فكيف يناصر
 الإنسان ربه العداوة وهو لا يعلم جنوده الذين في السماء والأرض؟ وكيف
 يأمن الإنسان وهو جاهل!!

كلما قلت معلومات الإنسان عن الشيء زاد خوفه منه؛ لأنه لا
 يستطيع التحكم أو التنبؤ بما يمكن فعله. وكلما زادت معلومات الإنسان
 عن الشيء زاد أمنه وأمنه وألفته به؛ لمعرفته كيف يتعامل معه، وقدرته
 على التنبؤ بتصرفه وسلوكه.

فالإنسان كيف له أن يعيش على هذه الأرض آمناً، وهو يجهل من
 في السماء إذن!! أليس الأولى أن يعيش بمخاوفه على الأرض، فتدفعه
 مخاوفه إلى إحسان العمل، والحذر من الوقوع في الشر، وبذلك يصل إلى
 الأمان!!

فالأرزاق إذن التي في السماء لا ينتفع بها الناس إلا بما جعل الله في
 الغلاف الجوي للأرض من سنن، تمكنهم من الانتفاع بها، ومن ثم فالسماء
 التي هي مخزن الرزق، هي مخزن العذاب، ومخزن الحماية والأمن أيضاً
 للبشر ولأهل الأرض. والقرآن الكريم يتحدث عن هذه السماء حين يتحدث
 عن أمور الرزق والعذاب والحماية والحفظ.

السابعة: السماء منزل التدبير ومعرجه

قال تعالى: (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)، وقال: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا). وسبق أن بينت أن السماء المقصودة في الآيات هي السماء الدنيا، وليست السماوات السبع، وإلا لكانت الآية ذلك كما في سورة الطلاق.

وسأتناول التدبير في مبحث قادم من هذا الكتاب.

الثامنة: الحركة في السماء عروج:

العروج في اللغة: صعود مع ميل، فهو ليس صعوداً مستقيماً، بل صعوداً متعرجاً، ولذلك سمي الأعرج بهذا الاسم؛ لأنه يمشي في غير استقامة، ويقال للطريق المائل المتعرج: انعرج، ويقال: انعرج الوادي.

وتبين الآيات في القرآن الكريم أن حركة الصعود في السماء هي العروج، أي: الصعود المائل المنحني. والمعارج: خطوط منحنية مائلة.

فعروج الناس قال تعالى: (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ)، فبينت الآية أن حركتهم الصاعدة هي عروج.

وكذلك الأمر يعرج إلى الله: (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ
ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ).

وكذلك الملائكة والروح: (مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ
وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ).

وكل شيء يصعد إلى السماء فإنه يعرج فيها (وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ
وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا).

وتبين الآيات أن في السماء معارج تعرج فيها الملائكة، فحركة
الملائكة في السماء ليست عشوائية، وإنما في معارج محددة لهم، وكذلك
الأمر الإلهي فله معارج محددة.

وفي السنة وصف النبي صلى الله عليه وسلم صعوده في السماء بأنه:
عروج، ففي البخاري: (ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا،... حَتَّى
عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ،... ثُمَّ عَرَجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَى أَسْمَعُ فِيهِ
صَرِيْفَ الْأَقْلَامِ). ولذلك سميت الحادثة بـ(الإسراء والمعراج)، لم يقولوا:
الإسراء والصعود، بل: المعراج. فهو بأبي وأمي ونفسي: ما ينطق عن الهوى،
إن هو إلا وحي يوحى.

المبحث السابع: السماوات في القرآن:

أشرت سابقا إلى أن (السماوات) ترد في القرآن الكريم في السياقات

التالية:

أولاً: الحديث عن خلق (السماوات والأرض)

وقد جاءت في تسعة وثلاثين موضعا، وبينت سابقا أن القرآن الكريم حين يتحدث عن الخلق، فلا يرد (خلق السماء)، بل: (خلق السماوات والأرض)، سوى في موضعين، وبينت دلالة ذلك. وأشرت إلى أن خلق السماوات والأرض كله تم في مرحلة الرتق، تم خلق كل شيء. ولذلك ذكرت السماوات والأرض في قوله: (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا).

وبالنظر في سياق الآيات التي تحدثت عن خلق السماوات والأرض نجد أنها جاءت في أحد عشر سياقاً، كما يلي:

- (١) آيات تحدثت عن خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى الرحمن على العرش. وما مسه من تعب ولا إعياء. وهي سبع آيات. كقوله: (الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ).
- (٢) بيان أنه خلق السماوات (ورفعها) بغير عمد مرئية لنا، وذلك في موضعين.

- (٣) العدد: بيان أنه خلق سبع سماوات طباقاً (في ثلاث آيات)، وفي آيتين بين أنه سواهن/قضاهن سبع سماوات: (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طَبَاقًا)، وقوله: (فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ). وقد تحدثت عن هذه الآيات سابقاً.
- (٤) بيان أن خلق السماوات والأرض من الآيات الدالة على الخالق، كقوله: (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ).
- (٥) الاستدلال بخلق السماوات والأرض على قدرة الله في إعادة الخلق، وهي أربع آيات كقوله: (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)، وقوله: (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ).
- (٦) الاستدلال على الكافرين، حيث يعترفون بأن الله خلق السماوات والأرض، فلم لا يعبدونه؟!، وهي أربع آيات، كقوله: (وَلَيْنُ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ).
- (٧) الاستدلال بصدق القرآن الكريم وأنه حق، بأنه نزل من خالق السماوات والأرض: (تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا).
- (٨) الامتتان والتعريف، ببيان أن الله هو الذي خلق السماوات والأرض، وهو الذي أنزل الماء، ... كقوله: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً).

(٩) الحكمة: بيان أن الله خلق السماوات والأرض بالحق، وذلك في عشر آيات (مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى). وقد تحدثت عن دلالتها في كتابي: الغيب والشهادة في القرآن الكريم، وبينت مفهوم الخلق بالحق.

(١٠) التعجيز، وذلك بيان أن البشر ما شهدوا خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم، وكذلك ما خلقوها، وما خلقوا أنفسهم، في سورتي الكهف والطور: (مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ)، (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ).

(١١) بيان أن عدة الشهور اثنا عشر شهرا منذ أن خلق الله السماوات والأرض: (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ).

ومن مجمل هذه الآيات يتقرر لنا أن الله خلق السماوات السبع وخلق الأرض، فكانتا رتقا، ثم فتقهما، وبعد أن سوى السماء الأولية سوى السماوات السبع، ورفعهن بغير عمد (ترونها)، وأنه جعلهن سبعا طباقا، بعضهن طبق فوق بعض. وكل ذلك تم في ستة أيام. وقد بينت مرارا أننا لا

نستطيع إدراك حقيقة هذه الأيام، وكذلك لا نستطيع إدراك السماوات السبع وتحديدها.

وأنه خلقهن بالحق؛ أي: ليكن بينات شهادات بوحدانيته سبحانه وتعالى، فهو الحق وكل ما دونه الباطل.

وقد جعل الله اعتراف الكافرين بأن الله خلق السماوات والأرض حجة عليهم، حجة تدلهم على أحقية الله بالعبادة، وتدلهم على أن البعث حق، وتدلهم على أن القرآن نزل من عنده. فاستدل بهن على ثلاثة أمور كبرى: وحدانيته، واستحقاقه وحده للعبادة، وقدرته على البعث، وشهادته بصدق القرآن الكريم.



ثانياً: مع أفعال الله وصفاته:

وردت (١٣١) آية، ذكرت فيها (السموات)، أو (السموات والأرض)، في سياق الحديث عن أفعال الله وصفاته. وجاءت في خمسة سياقات، على النحو التالي:

السياق الأول: الوحدانية

يأتي الحديث عن السموات والأرض لبيان وحدانيته سبحانه وتعالى، وقد أخذ ذلك ثلاثة أنحاء:

النحو الأول: بيان أنه ما من إله في السموات والأرض إلا هو الإله الواحد سبحانه وتعالى: (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ). وجاء مرة بلفظ (السماء)، في قوله: (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)، فهو رد على البشر بحسب اعتقادهم أن ثمة آلهة في السماء، فهم لا يعلمون أن هناك سموات، إنما يعلم البشر أن هناك سماء، فيقولون: هنالك آلهة في السماء. فالله يرد عليهم بلفظهم، ويقول: ليس في السماء آلهة، بل إله واحد، فهو الإله الذي في السماء وهو أيضاً الإله الذي في الأرض.

النحو الثاني: بيان أنه خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق، أي لتكون شاهدة بينة على الإله الحق. وقد أشرت إلى هذا.

النحو الثالث: الاستدلال بانتظام الأمر والتدبير في السماوات والأرض على أنه ما من إله إلا هو، ولو تعددت الآلهة لفسدت السماوات والأرض، واختل نظامها، فواحدية النظام دال على واحدية الخالق: (وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ).

السياق الثاني: أفعال الخلق.

(تقدم الحديث عن: خلق)، وورد مع (فاطر، بديع).

(فاطر):

كقوله: (فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)، وقوله: (فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ). وقد ورد في سبعة مواضع. وقد تحدثت عنها سابقا في أول الكتاب.

(بديع):

في موضعين (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ). وتكلمت عنها في كتاب (أفعال الخلق في القرآن الكريم).



السياق الثالث: الربوبية

جاء في أحد عشر موضعاً: رب السماوات والأرض، وتأتي للاستدلال على وحدانية الله، وأحقيته بالعبادة وحده (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ)، (وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا)، (وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ).

ولا سيما أن المشركين يقرون بربوبية الله للسماوات والأرض، فلم لا يوحدونه في العبادة؟! (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا).

وكذلك جاء الحديث عن (رب السماوات السبع)، مقترنا بالحديث عن العرش العظيم: (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)، (سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)...

كما يتصل بالحديث عن ربوبية الله للسماوات والأرض وما فيهن، أي قيامه بالأمر كله فيهن، وتدبيره لهن. يتصل بذلك بيان أنه نور السماوات والأرض: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)، أي: منورهما، ونوره تدبير وتجليه لهن ولما فيهن ومن فيهن، يجليها بإذنه فتخرج من عالم الغيب إلى عالم الشهادة. وقد بينت هذا سابقاً.



السياق الرابع: صفات العلم والإحاطة:

وجاء في ذلك تسع عشرة آية.

وقد أتت للدلالات التالية:

- إحاطة علم الله بما في السماوات وما في الأرض. كقوله: (وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ).

- وتبين الآيات أن ما لا يعلمه الله في السماوات والأرض فليس بعلم، وليس بحق، فكيف يدعي المشركون أن لله شريكا، والله لا يعلم أن له شريكا: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ).

- وتبين الآيات أن الله يعلم الغيب الذي في السماوات والأرض، (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ). وأن لله غيب السماوات والأرض. لراجع كتابي: الغيب والشهادة في القرآن الكريم].

- وتبين الآيات أن الله يعلم السر الذي في السماوات والأرض، وهو الذي يخرج الخبء فيهما: (أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)، (قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)،

فالذي يعلم السر فيهما هو الذي أنزل القرآن الكريم، فضمنه علمه سبحانه وتعالى. وأنه لا يغيب عنه مثقال ذرة فيهما إلا وهو يعلمه، وسيأتي به الله حين يشاء.

-وَأَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ (مَنْ) فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ).



وجاء لفظ العلم مع (السماء) في ست آيات: (قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)، وقوله (أَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)، وقوله: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)، وقوله: (وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)، وقوله: (وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)، وقوله: (وَمَا يَعْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ).

ويلحظ أن السياق يطرد في استخدام النفي مع (السماء)، كنفي خفاء شيء على الله في السماء، ونفي أن ثمة غائبة لا يعلمها، ونفي أن تكون مثقال ذرة عازية عنه... كالأيات السابقة في أربعة مواضع.



السياق الخامس: الملك:

وردت في إحدى وخمسين آية، وهي تبين أن لله ملك السماوات والأرض وما بينهما (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا)، وأنه وحده من يملكها وليس له شريك في ملكه (لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرِكٍ). وأن كل ما في السماوات والأرض، وكل من في السماوات والأرض ملكه، قد خضعوا لسيدهم (بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَانِتُونَ)، (أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ). وأن له جنود السماوات والأرض: (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ).

وتبين الآيات أن ميراث السماوات والأرض يؤول إلى الله وحده: (وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ).

وقد دعا الناس إلى أن ينظروا في ملكوت السماوات والأرض، وهو الملكوت الذي يملكه الله وحده: (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ).

وتبين الآيات أيضاً أن الله سبحانه وتعالى له خزائن السماوات والأرض (وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ).

أما ألفاظ الرزق فقد جاءت مقترنة مع (السماء) غالباً، فالناس رزقهم يأتيهم من السماء، والسماء مخزن الرزق، كما بينته سابقاً. باستثناء آيتين اقترن فيهما (الرزق) مع (السماوات)، وهما قوله: (قُلْ مَنْ

يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ، (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ). فهاتان الآيتان تبينان أنه وحده الذي يملك الرزق فيهن، وسواه ممن يدعونه لا يملكون شيئاً. فليس المراد من هاتين الآيتين بيان أن رزق الناس في السماء، وإنما بيان أن الله وحده الذي يملك الرزق في ملكوته، وملكوته يشمل السماوات والأرض.

وجاءت ثلاث آيات بصيغة السؤال للناس: من يرزقكم من السماء والأرض؟ قوله: (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)، وقوله: (أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)، وقوله: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ). فجيء بلفظ (السماء)؛ لأن الناس يأتيهم رزقهم من السماء، فالآيات هنا للامتنان، وبيان ألا أحد يرزق الناس غير ربهم فلم لا يعبدونه. أما الآيات السابقة (التي فيها لفظ السماوات) فجاءت لبيان أن الله وحده الذي يملك الرزق في ملكوته، ولا أحد يشاركه في ذلك.



السياق السادس: القهر والقدرة

فتبين الآيات أن كل من في السماوات والأرض وما فيهما خاضع له سبحانه، فما من شيء إلا وهو يسجد له ويسبح بحمده، وأن له مقاليد السماوات والأرض، وله الكبرياء فيهما...

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)، (وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ).. (وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا)، (إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنَ عَبْدًا)، (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ)، (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)....

وتبين الآيات أن لله كمال القهر والقدرة على خلقه، ولا شيء في السماوات ولا في الأرض يعجزه، فهو العليم بكل شيء القدير على كل شيء: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا).

ومن جهل فرعون أنه قال: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ بَنِي صَرَحَاءَ لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى). ففرعون لا يعرف ما السماوات، ولكنه لما سمع موسى عليه السلام يقول: (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا)، فلجهل فرعون وكبره قال: لعلي أبلغ أسباب السماوات التي يدعي موسى أن ربه يملكها!!

وتبين الآيات أنه ما من ملك في السماوات إلا وهو خاضع لربه، ولا يقدمون بين يديه، ولا يشفعون إلا بإذنه: (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَأِ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى).



السياق السابع: الامتنان

فألله سبحانه وتعالى يمتن على الناس بان سخر لهم ما في السماوات وما في الأرض، وأمكنهم من الانتفاع بها، ولولا تسخيره لما انتفعوا بشيء، فأولى بهم أن يتفكروا في هذه الآيات ويشكروا المنعم: (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ).



السياق الثامن: الكمال والاستحقاق

حيث تبين الآيات أن لله المثل الأعلى في السماوات والأرض، فله الكمال في كل صفة، وما من مثل إلا والله المثل الأعلى: (وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)... وله الحمد، فكل خلقه يحمده سبحانه وتعالى، فلا أحد يستحق الحمد إلا هو: (وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ).

ثالثاً: موقع السماوات والأرض بالنسبة لغيرهن

لدينا مجموعة من الآيات تبين موقع السماوات والأرض، وهي:

الأولى: آية الكرسي: (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

فهذه الآية تبين أن الكرسي يحيط بالسماوات والأرض، وأنه وسعهما. وقد تحدثت عن الكرسي في أول هذا الكتاب، وبينت أن الله أودع فيه من السنن ما يحفظ به السماوات والأرض، كما قال في الآية الأخرى: (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) [سورة فاطر].

وجاء الحديث عن سنة الحفظ والإمساك في ثلاثة مواضع، موضعين بلفظ (السماوات)، وهما المذكوران آنفاً. والثالث بلفظ (السماء)، وهو قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ) [سورة الحج]. فالخطاب هنا للناس، والحديث عن تسخيره لما في الأرض من أجلهم، وتسخيره لما في البحر من أجلهم (وهو الفلك)، فأتبع ذلك بذكر تسخيره للجو وما في السماء لأجلهم، وذلك ببيان أنه أودع في السماء سننه فلا تقع على الأرض، وبذلك بقيت الأرض آمنة لهم، وهذا رحمة ورأفة منه بالناس. فناسب المجيء بلفظ (السماء)؛ فالناس لا يرون فوقهم إلا سماء واحدة، ولا يرون سبع سماوات.

وأيضاً فلو وقع شيء على الأرض، فإن الذي يقع هو السماء لا السماوات كلها. ومن ثم ناسب المجيء بلفظ (السماء).

أما آية فاطر، فجاء بلفظ (السماوات)؛ لأن الحديث كان موجهاً إلى القوم الظالمين الذين ادعوا أن لله شركاء في السماوات، فقال الله لهم: أين هؤلاء الشركاء الذين زعمتم أنهم في السماوات؟! ثم استطرد: ألا تعلمون أن هذه السماوات إنما يمسكها ربكم بحلمه ومغفرته، ولو شاء لأزالها هي والأرض أيضاً؛ فذنوبكم تستحق ذلك، ولذلك قال في آخر السورة (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ). فبينت الآيات أن الله يمسك السماوات والأرض فلا تزولان.

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (٤٠) إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)



الثانية: الساعة فوق السماوات والأرض

قال تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّهَا عِنْدَ رَبِّي لَأَجْلِيهَا لَوْ قَتَّهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآ تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً)، وقال: (تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ).

بينت في كتابي: (الظلمات والنور في القرآن الكريم) أن الساعة تقع فوق السماوات والأرض، وهذا يفسر قوله (ثقلت في السماوات والأرض)، فناءت السماوات والأرض بحمل الساعة، وتكاد تتفطر بهذا الحمل الثقيل، وسوف يحدث ذلك حين يجلي الله الساعة لوقتها، فتتفطر السماء والأرض. للمزيد راجع الكتاب المذكور.



رابعاً: مصير السماوات

قال تعالى: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ). فالآية تبين أن الله سيطوي السماوات يوم القيامة بيمينه، سبحانه وتعالى عما يشركون. وهي مرحلة قبل طي السماء. وسأتحدث عن هذا في (نهاية الخلق).

ويبين الحق سبحانه وتعالى أن السماوات والأرض في ذلك اليوم ستبدل بأرض وسماوات أخرى (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ).



خامساً: عرض الأمانة على السماوات والأرض

قال تعالى: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا). تحدثت في كتابي (أفعال الخلق في القرآن الكريم)، عن الأمانة والمقصود بها، وكيفية عرض الله لها على السماوات والأرض والجبال.



سادساً: النظر والتفكير:

ذكرت سابقاً أن الله بين أن خلق السماوات والأرض من الآيات الدالة على الخالق، كقوله: (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)، (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ).

وقد جاءت آيات أخرى تتحدث عن هذا دون اقترانها بلفظ (الخلق)، كقوله: (إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ)، وتبين الآيات أن السماوات والأرض مليئة بآيات الله (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)، وأن على الناس النظر في هذه الآيات والتفكير فيها والإيمان بما تدل عليه: (قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْجِبُ الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ).

والآيات التي تدعو الناس إلى النظر والتفكير، وتبين أن الله جعل في السماوات والأرض آيات، جاءت بلفظ (السماوات) جمعا، ولم يأت شيء من ذلك مع لفظ (السما)، باستثناء قوله: (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ). وقد تحدثت عن دلالتها سابقاً.



وبهذا نعرف أن ثمة سياقات انفردت بها (السما)، وسياقات انفردت بها (السماوات)، وسياقات مشتركة بينهما. وسأوجزها في مبحث قادم.



والخلاصة كما قدمتها أن السماوات جزء من الملكوت الإلهي، وهو الجزء الذي ينفذ فيه تدبير الأمر، وفيه خلقه الذين يخضعون له. وهو الجزء الذي يخبرنا كثيرا عنه، فنحن ننتمي إلى هذا الجزء. فالسماوات هي مكان الإقامة لخلق الله في الحياة الدنيا. وأما في الدار الآخرة فالجنة والنار خارج هذا المدى، وتكون السماوات والأرض (بعد تبديلها) باقيتين: (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ).

المبحث الثامن: المرحلة الثالثة: مرحلة التدبير

هذه المرحلة الثالثة، وهي بعد خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وما مس ربنا من إعياء أو تعب، (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ). وبعد ذلك كما تبين الآيات (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ). فهي مرحلة التدبير.

المطلب الأول: استوى على العرش:

وردت في ستة مواضع (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)، وفي الموضع السابع: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى). ويتدبر هذه المواضع السبعة يتبين ما يلي:

١. أغلبها جاء بعد بيان (خلق السماوات والأرض في ستة أيام)، ثم يعطف عليها حرف (ثم): (ثم استوى على العرش، فاستوى على العرش) بعد خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وهي الأيام التي خلق الله فيها الخلق وسواه. وفي سورة الرعد (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)، فدل على أن مرحلة رفع السماوات وتسويتها هي آخر المراحل في الخلق والتسوية، ثم استوى على العرش.

٢. ذكر اسمين من أسماء الله الحسنی مع قوله (ثم استوى على العرش)، وهما: الله [في الأعراف ويونس والرعد والسجدة]، والرحمن [في طه والفرقان]. وهذان هما الاسمان

اللذان استخدمها مع الخلق، ولم يستخدم سواهما، (هَذَا خَلَقَ اللَّهُ فَأَرْوِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ)، وَالَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ). كما أنهما الاسمان اللذان اقترن بهما الأمر بالسجود في القرآن الكريم (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا)، (وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ)... وهما الاسمان اللذان أضيفت إليهما الآيات (إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا)، (وَيَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ)... وهما الاسمان اللذان خير الله عباده في الدعاء بأحدهما: (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى). وهناك خصائص أخرى تجمعهما دون سائر الأسماء الحسنى، سأتناولها في بحث آخر. فالرحمن هو أصل الأشياء الذي تعود إليه كلها، واشتقاقه متصل بالرحم لا بالرحمة، ففي الحديث القدسي الصحيح الذي رواه الترمذي: (قال الله عز وجل: أنا الرحمن، وأنا خلقتُ الرَّحْمَ، واشتقتُ لها من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بتته)، واستخدامه في سائر الآي ليس في مقام الرحمة والعطف، بل في مقام الخلق والتدبير والألوهية والربوبية (كالله).

٣. في أغلب الآيات جاء بعد قوله (ثم استوى على العرش)، الحديث عن تدبير الأمر، (ألا له الخلق والأمر) في الأعراف،

و(يدبر الأمر) في يونس والرعد، و(يُدبِرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) في السجدة. وفي سورة هود أعقبه بقوله (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)، فالله يدبر الأمر وفي تدبيره بلاء للناس أيهم يحسن عمله وأيهم يسيء، فاللام في قوله (ليبلوكم) للتعليل، والمعنى: أنه استوى على العرش يدبر الأمر؛ ليبلوكم. ووازن مع آية سورة الملك: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)، فخلق الموت والحياة من تدبيره أمر الخلق، وفي هذا التدبير يبلو الناس، وفي سورة الكهف: (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)، فجعل ما على الأرض زينة لها هو من تدبير الله لخلقه، فعلى ذلك بأنه يبلو الناس أيهم أحسن عملاً.

كما جاء الحديث عن بعض مظاهر التدبير، كإيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل، وتسخير الشمس والقمر والنجوم، وجريانها إلى أجل مسمى. كما جاء الحديث عن علمه بذات الصدور، وبما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وملكه ومعيته. كما تحدث عن خضوع كل خلقه له، فتحدث مرتين عن أنه ما من

شفيح إلا بعد إذنه، ومالككم من دونه من ولي ولا شفيح. فهذه كلها مظاهر التدبير.

٤. في أغلب الآيات جاء الحديث في سياق ربوبية الله تعالى: (إن ربكم هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، فهو خلق ولم يترك ما خلق، فكمال ربوبيته على خلقه أن يدبر الخلق (ألا له الخلق والأمر)).

٥. في أربعة مواطن جاء عقب الحديث عن ذلك توجيه الناس إلى عبادته، فهو ربهم، وإلى دعائه تضرعا وخفية، وإلى السجود له، وإلى ولايته، وبين في المواطن الخماس أنه معهم أينما كانوا، وأنه عليهم بذات صدوره. فتبين بذلك أن قيامه على خلقه، وهدايته لهم، هو من أمره الذي يدبر به الخلق، فهو يفضل الآيات لهم.

فقوله (ثم استوى على العرش)، لفظ (استوى) يحمل دلالة مرحلتين متباينتين، يكون الانتقال من المرحلة السابقة إلى اللاحقة. فالآيات تبين هذا الانتقال، باستخدام حرف العطف (ثم)، وسياقها كما تقدم يبين أن ذلك مرتبطاً بحالة سابقة (وهي حالة خلق السماوات والأرض في ستة أيام)، وحالة لاحقة هي غير حالة الخلق، وهي حالة (تدبير الأمر)، كما جاء ذلك في سياق أغلب الآيات التي ذكرت (استوى على العرش)، فيعقبها: يدبر الأمر، أو: له الخلق والأمر. فهي مرحلة الأمر

وتدبيره، ويؤكد ذلك ارتباطها بالاسمين العظيمين: الله والرحمن، وهما الاسمان الواردان في سياق الخلق والتدبير.

والملاحظ أن قوله (ثم استوى على العرش) ورد ست مرات في القرآن الكريم، والمرة السابعة قوله (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)، فاختلقت الصيغة، وهذا يبين ارتباط الدلالة بخلق السماوات والأرض في ستة أيام.

ومن ثم يمكن القول أن (استوى على العرش) هي المرحلة الثالثة الفاصلة في مسيرة السماوات والأرض وما فيهن.

واللفظ في مختلف سياقاته يركز على الفعل لا على الذات، فالفعل هو: تدبير الأمر، وأن هذا التدبير بعد الخلق والتسوية، وبذلك نفهم قوله (ألا له الخلق والأمر). ونحن نهتم بما يهتم به القرآن الكريم، ولا نبحث عن أشياء لا تعنينا كبشر، وليس مرادا منا أن ندرکها، فما الذي يعنينا الحديث عن ذاته سبحانه وتعالى والقول بأنه على العرش، والقرآن لم يقل ذلك بل: قال (استوى على العرش)، وجاء ذلك كله في سياقات واضحة ومكررة.

وجاء في تفسير القرطبي عند تفسير آية السجدة (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض). قال القرطبي: (وقد قيل: إن العرش موضع التدبير، كما أن ما دون العرش موضع التفصيل، قال الله تعالى: "ثم استوى على

العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات". وما دون السماوات موضع التصريف، قال الله تعالى: "ولقد صرفناه بينهم ليذكروا". فجعل العرش موضع التدبير، وما دون العرش موضع التفصيل، وما دون السماوات موضع التصريف.

ونحن نقول إن قوله (ثم استوى على العرش)، يعني أنه سبحانه وتعالى بعد أن خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وسوى، فإنه استوى على العرش، أي: قصد إلى تدبير خلقه. فهو يدبر الأمر سبحانه وتعالى.

المطلب الثاني: يدبر الأمر من السماء إلى الأرض:

جاء في سورة الطلاق: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ)، فالآية تتحدث أن الأمر يتنزل بين السماوات السبع، فينزل من سماء إلى السماء التي تليها، فهو يتنزل بين السماوات. أي: ينزل من واحدة إلى الأخرى.

وفي السجدة (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)، فالأمر الإلهي (الذي يخص الأرض وأهل الأرض) يدبره الله من السماء إلى الأرض، فينزل إلى الأرض، ثم يعرج إليه، أي: إلى المحل الذي بدأ منه، وهو السماء. والآية تصف سرعة تدبير الأمر، فيكون سرعته في يوم واحد، كألف سنة مما يعد البشر.

وتبين الآية أيضاً أن الأمر الإلهي يصل إلى الأرض، ثم يعود إلى السماء، ثم يصل إلى الأرض... فهناك أمر نازل وهناك أمر عارج، على الدوام، كما قال: (وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا)، فالأمر ينزل من السماء إلى الأرض والأمر هو القدر الذي يقدر الله به سير كل شيء، ويقدر به كل أمر، فما من حركة ولا سكنة ولا شيء إلا والله يدبره بأمره. فهي التعليمات الإلهية التي تنزل لكل مخلوق فتشغله أو تسكنه.

ويمكن تشبيه ذلك بجهاز الكمبيوتر، والبرمجة المشغلة له، فكل مخلوق مثل جهاز الكمبيوتر، والأمر الإلهي هو البرامج المشغلة لهذا الجهاز. الإنسان مثلاً جهاز، وكل جهاز داخله، وكل عضو، وكل خلية فيه... لا يعمل إلا بالأمر الإلهي.

والأمر الإلهي يتواصل مع القدر في المخلوقات. فالله سبحانه وتعالى حين خلق المخلوق قدر فيه كل شيء، قدر زمن وجوده وزمن انتهائه، وقدر حركته وقدر عمله، كل شيء فيه مقدر... وهذا التقدير يحتاج إلى (الأمر)، فحين يأتي الأمر يستجيب هذا التقدير ويعمل.

فالطير الذي تراه، حين خلقه الله قدر فيه كل شيء، ولكنه يظل في عالم الغيب، وحين يأذن الله فيجلبه بنوره لوقته، فإنه يبرز إلى عالم الشهادة، ويظل في عالم الشهادة حتى يعود إلى عالم الغيب.

فالأمر الإلهي هو الذي ينزل إلى هذا المخلوق فيجلبه بنور الله لوقته، ويخرجه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، حتى يعود إلى عالم الغيب.

وهكذا كل مخلوق، يخلق الله ويودع فيه أقداره. وحين يجلبه الله لنوره فإنه يأتيه الأمر الإلهي فيدبر الله امره.

وبذلك فكل مخلوق يدبر الله أمره تدبيراً تاماً، بأمره سبحانه وتعالى.

وبينت في كتابي: الظلمات والنور في القرآن الكريم، أن كل شيء قد خلقه الله وأودع فيه أقداره وسننه، ويظل في عالم الغيب، حتى يجليه الله لوقته. والله يجليه بنوره، فهو نور السماوات والأرض. ف"أمر" الله هو نوره الذي يجلي به الخلق ويدبر أمر كل مخلوق به.

ويدل على هذا قوله تعالى: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ)، فبينت الآيات أن الله خلق كل شيء بقدره، أي خلقه فأودع فيه أقداره، وحين يأتي أمر الله فإنه يتجلى بأمر ربه، وهذا الأمر إنما هو واحدة كلمح بالبصر. وقوله (واحدة)، أي: أن كل شيء له أمر يخصه، ومن ثم فالشيء يقضيه الله بـ (أمره واحدة)، أمره واحدة لا ثاني لها، يرسلها الله إلى الشيء فتقضيه بإذن ربه. فالأمر الواحدية تحمل توجيهها واحداً، وكل أمره تحمل توجيهها واحداً. فالأمرية تبين دقة الأمر الإلهي، فكل شيء له أمره، يأتيه أمر محدد، بتوجيه محدد، فأية القمريتين أن أمر الله ليس كلاماً عاماً، بل مفصل، كما قال (وَكُلُّ شَيْءٍ فَصْلَانُهُ تَفْصِيلاً). كل شيء له أمره واحدة، تأتيه فتقضيه بإذن الله.

فيسمى الأمر أمراً، بالنظر في التدبير، فالله يدبر شأن خلقه بأمره، فيقضي ما شاء. ويسمى نورا، بالنظر في تجليته من عالم الغيب إلى عالم الشهادة.

فحين يجلي الله شيئا يرسل إليه أمرة واحدة، فيتجلى بإذن ربه.

وبذلك ففي كل لحظة ينزل من (الأمر) ما لا يعلمه إلا الله. كل شيء يدبره الله بأمرة واحدة.

وقال تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّئُهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ)، وقال: (وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَحٍ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ)، أي: الأمر الذي يرسله الله إلى الساعة فيجليها، حيث يرسل إليها أمره فيجليها بنوره، فتنتقل من عالم الغيب إلى عالم الشهادة. وتبين الآية أن هذا الأمر (النور الإلهي المشغل والمحرك للمخلوقات، والذي يدبر الله به أمر الخلق فينقلها من عالم الغيب إلى عالم الشهادة). تبين الآية أن هذا الأمر إنما هو كلمح البصر أو أقرب، كما قال: (وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمَحٍ بِالْبَصَرِ).



وعودة إلى قوله تعالى: (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)... تحدثت عن أن الأمر ينزل

من السماء إلى الأرض، ثم يعرج الأمر إلى السماء، أي: إلى المحل الذي صدر منه.

فالأمر النازل: هو أمر الله الذي يقضي به الشيء، بعد أن لم يكن مقضياً. والأمر العارج: هو الأمر نفسه الذي أرسله الله يعرج مرة أخرى إلى السماء حاملاً تقرير التنفيذ.

وبهذا نفهم أن الأمر الإلهي (شفرة برمجة) يرسلها الله إلى الشيء، حاملة التوجيه (أو التعليم) المحدد، فيتم التنفيذ، ثم يعود الأمر إلى السماء، بتقرير التنفيذ، الذي تم.

فالأمر هو شيء، ولكننا لا نفهم طبيعة هذا الشيء، إنما نفهم أنه شيء يدبر الله به الخلق، خلق الله كل شيء وقدره، ثم هو يدبر أمره. فله الخلق والأمر.



(فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا)

هذه الملائكة، الموكلة بأمر الله سبحانه وتعالى. ولا ندري طبيعة حملها للأمر الإلهي، وهل تحف به حتى يتم، أو تحفظه حتى يأتي وقته فترسله بأمر الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ)، ففي ليلة القدر، وهي الليلة المباركة، يفرق كل أمر حكيم، من عند الله سبحانه وتعالى، وتقوم الملائكة بتقسيم هذا الأمر وفرقه، كما قال تعالى: (فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا). وتبين الآيات أن الله يرسل أمره إرسالاً (إنا كنا مرسلين)، أي: مرسلين للأمر بعد فرقه وتقسيمه، يرسل الله كل أمر إلى ما أعد له، فينقضي بإذن الله.

المبحث التاسع: نهاية الخلق ومراحله

كلما ورد في القرآن الكريم من حديث عن نهاية السماء من انشقاق وانفطار وتشقق... فقد ورد مع (السماء)، وهي السماء الأولية التي تحدث عنها في أول المرحلة الثانية.

أولاً: سياق الآيات

وردت النهاية مع الأفعال التالية:

(الانشقاق): قال تعالى: (فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ)، وقال تعالى: (وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧))، وقال تعالى: (إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥))

(الانفطار): قال تعالى: (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ)، وقال تعالى: (يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا).

(الانفراج): قال تعالى (فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ).

(فتح الأبواب): قال تعالى: (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨)
وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا).

(حالة السيالان)، قال تعالى: (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا. وتسير الجبال
سيرًا)، وقال تعالى: (يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ
كَالْعِهْنِ).

(حالة الدخان): (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (١٠) يَعْشَى
النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١)).

(الطي): (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ
خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ). كما ذكر الطي مع (السموات)،
وسأبين لماذا، قال تعالى: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ).



ثانياً: مراحل نهاية الخلق

ستكون عملية نهاية الخلق عكس عملية الخلق الأول، وهذا مفهوم المثلية في قوله تعالى (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ). راجع (مصطلح: بدأ الخلق في كتابي (أفعال الخلق في القرآن الكريم).

ففي الخلق الأول (كما دلت على ذلك): خلق الله السماء والأرض، ثم خلق ما في الأرض، ثم سوى السماء إلى سبع سماوات. وفي نهاية الخلق، ستطوى السماوات السبع أولاً حتى تعود سماء واحدة، ثم ينتهي ما خلق في الأرض، ثم تنتهي السماء والأرض. وبذلك فنهاية الخلق تمر بالمراحل التالية:

المرحلة الأولى: طي السماوات

طي السماوات، وهو أجلها المسمى، حيث تطوى وتعود إلى سماء واحدة، وهذا هو الأجل المسمى لها قال تعالى: (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى)، وقال تعالى: (مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ)، فهو أجل مسمى للسماوات كلها. وهذه المرحلة المذكورة في قوله: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا

قَبَضْنُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ).

وبذلك تطوى السماوات فتعود سماء واحدة، كما بدأها الله أول مرة.

المرحلة الثانية: تصدع السماء

ما تتعرض له (السماء الواحدة) من ظواهر تغير نظامها وتصدع بنيتها، وتخلخل أنسجتها، حتى تصير بنيتها واهية (انشقاق، انفطار، انفراج). وقد سبقنا الأدلة. وتأمل قوله (وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ). وهذه المرحلة داخلها مراحل، ففي هذه المرحلة تلقي الأرض ما فيها وتنعدم الحياة عليها (وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ)، وتصبح جبالها هباء منبثا، وبحارها تتفجر. (وهذه تقابل مرحلة الخلق الثانية حين خلق الله لنا ما في الأرض ودحاها ومدها وأرسي جبالها... الخ)، وفيها تنطمس النجوم، وتتناثر الكواكب... الخ.

والمتدبر في الآيات يجد أن الظواهر التي تعرض للسماء عند نهايتها في هذه المرحلة هي: الانشقاق، والانفطار، والفروج. وهذه الظواهر نفاها الله عن السماء والسماوات (الحالية)؛ ذلك أنها مبنية لا شقوق فيها ولا صدوع ولا فروج، فقال تعالى: (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ

الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتِ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ، وقال تعالى: (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ).

المرحلة الثالثة: مرحلة السيلان

ما تصير إليه السماء بعد ذلك من ذوبان وتحول إلى حالة سيلان وتغير في الألوان، (المور)، تشبه الزيت (كالمهل)، أو الدهن (وردة كالدّهان)، ولهذا تأمل آية سورة الرحمن (فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ) فصيرورتها وردة كالدّهان لاحقة لمرحلة انشقاقها.

قال تعالى: (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا. وتسير الجبال سيرا)، وقال تعالى: (يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ).

المرحلة الرابعة: مرحلة الدخان

مرحلة الدخان، فبعد ذوبان السماء وتحولها إلى مادة مذابة، فإنها تتحول إلى مادة دخانية، (وهذه تقابل مرحلة الدخان في بداية الخلق)، قال تعالى: (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى). والله أعلم بمراده.

ملحوظة: بعض المفسرين يرى أن هذا الدخان من علامات الساعة الكبرى، وهو الوارد في الحديث النبوي. وهذا محتمل، غير أنني أرى حمله على نهاية مراحل الخلق. وقوله: يغشى الناس.. فهو وصف لحالة الناس في ذلك اليوم المهول، وما يعانونه وما يتمنونه، كما قال تعالى: (وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذُّكْرَى (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي) وفي آية الدخان يبين أنه ليس للناس في ذلك اليوم إلا ما قدموا، ولا تنفعهم الذكري (أنى لهم الذكرى)!! فقد فات زمنها في الحياة الدنيا. وقد تحدثت سورة الدخان عن مصير الناس في يوم القيامة، وسياقها العام يرسم المشهد في ذلك اليوم، وختمت بالقول: (فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ)، أي: فارتقب ذلك اليوم الذي يحقق الله فيه بطشته الكبرى وانتقامه بالظالمين الجبارين.

المرحلة الخامسة: طي السماء

وهذه المرحلة تختلف عن الطي الأول، فالطي الأول هو طي السماوات إلى سماء واحدة، وهذه المرحلة هو طي السماء الواحدة، قال تعالى: (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ). وهذه المرحلة الأخيرة، وهي تقابل مرحلة الفتق، ولهذا ذكر معها قوله (كما بدأنا أول خلق نعيده)، إيذاناً بأن

الخلق بدأ بالفتق (المذكور في سورة الأنبياء)، وانتهى بالطي (المذكور في سورة الأنبياء أيضا).

المرحلة السادسة: تبديل السماوات والأرض.

وأتكلم عنها في الفقرة التالية.



ثالثاً: تبديل الأرض والسموات

قال تعالى: (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨))، وقد اختلف المفسرون: هل هو تبديل صفات (فتتبدل صفاتها وأنظمتها)، أو تبديل ذات (بحيث توجد أرض وسموات جديدة).

وقد حققت في كتابي (ألفاظ الإحياء والإماتة في القرآن) مفهوم التبديل، والفرق بينه وبين التغيير. فالتبديل: إحلال شيء مكان آخر. أما التغيير فليس إحلال شيء مكان آخر، ولكن تغيير في صورة الشيء نفسه (أي في صفاته أو أنظمتها).

وقوله: (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ)، يبين أن الأرض والسموات الحالية ستفنى، ويأتي الله بأمثالها، كما تفنى أجساد الأحياء ويأتي الله بأمثالها. قال تعالى: (وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمُ تَبْدِيلًا)، هذا يتحقق يوم القيامة، والمعنى: بعد أن تفنى أجسادهم في الدنيا، سنأتيهم بأمثالها.

فنحن لا نقول بتغيير الصفات أو (تبديل) الذات، بل هو تبديل، ويفسره آيات الإعادة، فهو إعادة خلق (كما بدأنا أول خلق نعيده)، وإعادة الخلق تعني أنه ليس خلقاً جديداً، بل هو الخلق الأول فكما يموت الإنسان،

فالمخلوق كله يهلك (كل شيء هالك إلا وجهه)، ثم يعيد الله خلقه كما بدأه أول مرة.

كما أن قوله تعالى: (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى)، وقوله (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا)، فهو يخرجهم من الأرض التي خلقوا منها، كما هو نص الآية، وليست أرض أخرى. فالله يعيد خلق الأرض كما قال تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات).

فبالخلاصة أن السماوات والأرض بعد طيها، يعيد الله خلقها مرة أخرى، وهذا هو مفهوم التبديل. فيعيد الله خلقها، كما يعيد خلق الناس، وكما يعيد خلق كل شيء. (تبديل مثل الشيء).

ونلاحظ أن القرآن الكريم ذكر هنا عند الحديث عن تبديل الخلق لفظ (الأرض والسماوات) بالجمع، كما ذكر ذلك عند الحديث عن بدء الخلق (أن السماوات والأرض كانتا رتقا)، بالجمع وليس (السماء) مفردة، وهذا يعزز أن التبديل سيكون إعادة خلق كما كان أول مرة.



وهذه السماوات هي المقصودة في قوله سبحانه وتعالى في سورة هود: (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا

دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ، فخلودهم بعد بعثهم في الآخرة، وذلك بعد أن يبدل الله السماوات والأرض. وإذا كانت السماوات في الحياة الدنيا لها أجل مسمى، كما أخبرنا ربنا، فهل السماوات في الآخرة كذلك؟ هناك اختلاف بين العلماء في هذا، وخاصة إذا قرنا هذه الآية بقوله تعالى في سورة النبأ (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ مَابًا (٢٢) لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣)). فهو أثبت (الأحقاب)، وهي مدة زمنية. والله أعلم بمراده.

وفي قوله سبحانه وتعالى: (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)، مع قوله تعالى: (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ). فهذه السماء والأرض، أو السماوات والأرض هي سماوات وأرض الآخرة، وليس سماوات وأرض الدنيا.

وبالتدبير في هاتين الآيتين: الجنة الأولى أوسع؛ فعرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، فجنتهم أوسع من جنة سائر المؤمنين، التي عرضها السماء والأرض، فالسماوات أكبر وأوسع من السماء الواحدة. ولذلك قال مع جنة المتقين (وسارعوا)؛ لأن السالكين فيها قليل، فلو كنت وحدك فعليك بالمسارعة، أما الجنة الأخرى فقال (سابقوا) لكثرة السالكين من

المؤمنين، وبذلك يتسنى السباق. ولما كانت جنة المتقين أعظم وأوسع جاء فحدد أوصافهم: (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)، أما جنة المؤمنين فاقصر على الإيمان بالله ورسوله. والله أعلم بمراده.

رابعاً: النفخ في الصور ونهاية الخلق

لا أريد هنا أن أتحدث عن الصور، ولكن أريد أن أضعه في سياقه الزمني مع نهاية الخلق. فقد بين القرآن الكريم أن ثمة نفختين في الصور، الأولى (نفخة الصعق) التي يصعق فيها الخلائق، وهي نفخة الإماتة، والثانية (نفخة القيام)، وهي النفخة التي تقيم الخلائق كلهم من أجداثهم. والمتتبع لآيات القرآن الكريم يجد أن نهاية الخلق ستكون بعد النفخة الأولى، ثم تحدث أحداث الخلق الجديد، ثم النفخة الثانية.

قال تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ). فالآية تبين ما يلي:

أن نفخة الصور الأولى ستؤدي إلى صعق من في السماوات ومن في الأرض. ثم النفخة الثانية ستؤدي إلى قيامهم، وستشرق الأرض (وهي الأرض الجديدة التي سيخلقها الله) بنور ربها.

وقال تعالى: (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانْشَقَّتْ

السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ نُعْرَضُونَ لَكَ تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ).

فهو يبين أن أحداث نهاية الخلق ستكون بعد نفضة الصور (ويبدو أنها الأولى)، ويوم القيامة مراحل يبدأ بالنفخة الأولى، ثم أحداث نهاية الخلق، ثم تبديل الأرض والسموات، ثم النفخة الثانية، وبعث الخلائق. ولا نعلم شيئاً عن المدى الزمني بين هذه المراحل.

وبذلك أفهم الآيات التي تتحدث عن نهاية الخلق وفق هذا الترتيب، فقوله تعالى: (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ) فانفطار السماء وانتثار الكواكب وانفجار البحار سيكون بعد النفخة الأولى، أما بعثرة القبور وقيام الناس فسيكون بعد النفخة الثانية، كما في آية سورة الزمر، وكما في قوله (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ)، واقترانها بالواو يدل على سرعة حدوثها، وسرعة تعاقب المراحل، وكل ذلك في علم الله سبحانه وتعالى.

وانشقاق السماء الواردة في الآيات هي التي ستكون بعد النفخة الأولى (من أحداث نهاية الخلق)، أما تشقق السماء بالغمام الواردة في قوله تعالى: (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا)، والوارد في قوله تعالى (وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧)

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ، فيبدو والله أعلم أن هذا سيكون بعد
النفخة الثانية حين يقوم الخلق، ويجيء الرب والملائكة (وَجَاءَ رَبُّكَ
وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ)، (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ
(٩٠) وَبُرُزَّتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ)، وكذلك ما جاء في سورة التكوير (وَإِذَا
الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢)
وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ)، فهو يكون بعد النفخة
الثانية، وستزلف الجنة للمتقين وتبرز الجحيم. والله أعلم بمراده.

المبحث العاشر: السياق اللغوي المستخدم مع السماء والسماوات

المطلب الأول: السياق اللغوي في الحديث عن السماء (الأولية)، أو (الدنيا)
في بداية الخلق.

أ. فعل الخلق لم يقترن بالسماء (المفردة)، في كل القرآن الكريم،
سوى موضعين تحدث فيهما عن خلق السماء والأرض بالحق.
ب. الأفعال المقترنة مع السماء (الأولية، أو الدنيا):

١. البناء (٦ مرات: جعل بناء، بناها، بنيناها)، واقتربت معه
أفعال: الرفع (مرة)، والتسوية (مرة)، والإيساع (مرة)،
وإغطاش الليل وإخراج الضحى (مرة)، والتزيين (مرة).
٢. الرفع (٣ مرات: رفع سمكها، رفعها، رُفعت)، جاء مرة مقترنا
مع البناء، واقترب معه: وضع الميزان (مرة).
٣. جعل فيها: بروجاً (مرتين)، واقتربت مع: التزيين للناظرين
(مرة)، والحفظ من الشياطين (مرة)، وجعل السراج
والقمر (مرة)، وجعل الليل والنهار خلفاً (مرة).

٤. جعلها سقفا (مرة)، واقتربت بالحفظ، وبخلق الليل والنهار والشمس والقمر.

٥. تزيين السماء الدنيا (ثلاث مرات)، واقتربت بالمصابيح (مرتين)، وبالكواكب (مرة)، وبالحفظ (مرة)، وبالحفظ من الشياطين (مرة)، وجعلها رجوما للشياطين (مرة).

٦. (على لسان الجن): ملئت بالحرس الشديد والشهب (مرة).

٧. وجاءت في ثلاثة مواطن موصوفة بـ(ذات): ذات البروج، ذات الرجح، ذات الحبك. وجاءت في موطن معطوفا عليها (والطارق: النجم الثاقب).

٨. وجاءت في موضعين في سياق بيان أنها أصل السماوات، وفي موضع مقترنة بالبكاء [البقرة: ٢٩، وفصلت: ١١، والدخان: ٢٩].

٩. وجاءت في موضعين مع بيان السنن الإلهية في رفعها وإمساكها، وقيامها بأمره.

ج. الحديث عن الأرض مع السماء:

١. اطرده الحديث عن الأرض مع السماء حيث ذكر البناء أو الرفع، كما يلي:

أ. حيث ذكر البناء فعلا، أو الرفع: جاء الحديث عن الأرض بعدها (ستة مواضع).

أ. حيث ذكر البناء اسما (جعل لكم.. بناء): جاء الحديث عن الأرض قبلها (موضعان).

- وفي هذه المواضع فقد اقترنت الأرض بالأفعال (مرة لكل منها): جعلها فراشا، جعلها قرارا، دحاها، طحاها، فرشناها، مددناها، وضعها للأنام، سطحت.

- وفي هذه المواضع لم تذكر السماوات. [البقرة: ٢٢، وغافر: ٦٤، والنازعات: ٢٧، والشمس: ٥، وق: ٦، والذاريات: ٤٧]

أ. اطرء ذكر الأرض سابقا للسماء في موضعين تحدث فيهما عن تسوية السماء إلى سبع سماوات. وعطف على السماء حين ذكر فعل البكاء. [البقرة: ٢٩، وفصلت: ١١، والدخان: ٢٩]

أ. اطرء ذكر الأرض مع السماء في موضعي بيان السنن الإلهية فيهما: الإمساك وقيامهما بأمره. [الحج: ٦٥، والروم: ٢٥]

٢. عند الحديث عن جعل بروج في السماء وتزيينها وحفظها من الشياطين (مرتين)، جاء الحديث عن الأرض لاحقاً (مرة). وفي المرة الأخرى سبقها الحديث عن خلق السماوات. [الحجر: ١٦، والفرقان: ٦١]

٣. عند الحديث عن زينة السماء الدنيا بمصابيح (مرتين)، ذكر قبلها الحديث عن السبع السماوات في المرتين. وفي مرة ذكر خلق الأرض سابقاً لذكر السماوات. انفصلت: ١٢، والملك: ٥]

٤. عند الحديث عن زينة السماء الدنيا بالكواكب (مرة)، لم يذكر معها لا السماوات ولا الأرض. [الصفاء: ٦]

٥. عند الحديث عن جعل السماء سقفا محفوظا، جاء الحديث عن السماوات والأرض قبلها. [الأنبياء: ٣٢]

د. وعليه يتبين من خلال هذه السياقات ما يلي:

١. السماء الأولية (في ٨ مواضع): جاء الحديث عنها مع أفعال: البناء والرفع، واقترب بها: الإيساع، والتسوية، وإغطاش الليل وإخراج الضحى، وإحكام البناء، ووضع الميزان. واطرد معها ذكر الأرض، ولا تذكر معها السماوات.

٢. السماء الدنيا (في ٧ مواضع - ثلاث منها وصفت: السماء الدنيا): جاء الحديث عنها مع أفعال: التزيين، والحفظ. ويقترن بكونه جعل فيها: البروج، والشمس والقمر، والشهاب، والليل والنهار، والمصابيح، والكواكب. ويسبقها الحديث عن السماوات والأرض، أو السماوات وحدها، وفي موضع جاءت وحدها دون اقتران، وفي موضع تبعها الحديث عن الأرض.

٣. جاء ذكر السماء (في ٤ مواضع: البروج: ١، الطارق: ١، والذاريات: ٧)، دون فعل، بل كانت مقسما بها، ووصفت ب(ذات)، واقتربت ب: البروج، والرجع، والحبك، والطارق: النجم. وبالنسبة للنجم والبروج فعادة ما ترد مع السماء الدنيا. وأما الرجع فقد ذكر في سورة (الطارق) مع النجم الثاقب، وحفظ النفوس، وسياق السورة يرجح حمله على السماء الدنيا. وأما الحبك فقد ذكر في سورة (الذاريات)، وقد جاء الحديث فيها عن بناء السماء (والسماوات بنيناها بأيدي)، والمقصود بها السماء الأولية، وحيث لا قرينة غير هذه، فحملها على السماء الأولية أولى. والله أعلم.

- هـ. وعليه فيكون ذكر (السماء الأولى) في ١٤ موضعا لعند الحديث عن أول مرحلة التسوية، وهي الواردة في السور التالية: البقرة: ٢٢، وغافر: ٦٤، والنازعات: ٢٧، والشمس: ٥، وق: ٦، والذاريات: ٧، و٤٧. وثلاثة مواضع هي: البقرة: ٢٩، وفصلت: ١١، والدخان: ٢٩. وموضعان: الحج: ٦٥، والروم: ٢٥.
- و. ويكون ذكر (السماء الدنيا) في ١٠ مواضع: الحجر: ١٦، والفرقان: ٦١، والبروج: ١، والأنبياء: ٣٢، والصفات: ٦، وفصلت: ١٢، والملك: ٥، والجن: ٨، والطارق: ١، و١١.
- ز. وأخيرا فكلما سبق خاص بالحديث عن السماء في بداية الخلق، أما الحديث عنها في نهاية الخلق فهو كما ذكرنا كله ورد مع السماء الواحدة التي تعود إليها السماوات كلها (السماء الأولى)، وقد جاء في (١٩ موضعا).

المطلب الثاني: التراكيب اللغوية المستخدمة مع السماء والسموات:

انضردت (السموات) بالسياقات التالية:

- ١ - بيان العدد (سبع سماوات).
- ٢ - عرض الأمانة (على السموات والأرض).
- ٣ - اقترانها مع (فاطر)، و(بديع).
- ٤ - الحديث عن ملك السموات والأرض: له ملك السموات والأرض، له ما في...، له من في...، ملكوت السموات والأرض، لله ميراث السموات والأرض، لله جنود السموات والأرض، له خزائن السموات والأرض.
- ٥ - الحديث عن الكبرياء والقهر والعلو: له الكبرياء، له مقاليد..
- ٦ - الحديث عن خضوع ما في السموات والأرض وما فيهما له.
- ٧ - تسخير ما في السموات والأرض للناس.
- ٨ - الاستدلال بالسموات والأرض وانتظامها على وحدانيته.
- ٩ - نور السموات والأرض.
- ١٠ - استحقاقه الحمد والعبادة والمثل الأعلى. (وله الحمد في السموات والأرض).
- ١١ - حمل السموات للساعة، وتكاد يتفطرن من فوقهن.
- ١٢ - النظر والتفكر، وكونها مليئة بآيات الله.

والمواطن التالية يقترن السياق غالباً فيها بـ(السموات)، وهي:

- ١ - خلق السموات والأرض، (مع خلق غالباً)، (٣٩ مرة)، ولم يأت مع (السماء) إلا في موضعين، حيث بين أنه خلق السماء والأرض بالحق. وتحدثت عنها سابقاً.
- ٢ - رب السموات والأرض. ولم تقترن (رب) مع السماء إلا مرة واحدة في سورة الذاريات، (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ). وذلك لأن سياق الحديث عن رزق البشر.
- ٣ - الحديث عن علمه بما في السموات والأرض ومن فيهما، باستثناء ستة مواضع جاء الحديث عن العلم مقترناً بلفظ (السماء)، وقد بينتها آنفاً.
- ٤ - حفظه للسموات والأرض، وسعة الكرسي لهن. في موضعين، وفي موضعين اقترنت بـ(السماء): (وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ)، وقوله: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ).
- ٥ - طي السموات يوم القيامة، وتبديلها سماوات غير السموات. واقترنت مع (السماء) في آية الأنبياء: (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السُّجُلِ لِكُتُبٍ)، فطي السموات

مرحلة سابقة، وطى السماء مرحلة لاحقة. كما بينته
آنفاً.



وأما السماء فانفردت بالسياقات التالية:

١ - الحديث عن بداية السماء: البناء والتسوية والرفع
والإيساع، والحبك، والتزيين للناظرين، والتزيين
بالكواكب والمصابيح، وما جعله فيها من بروج
وسراج وقمر منير، وشهب، ونجوم، وليل ونهار،
وكونها محفوظة.

ويستثنى من ذلك موضع جاء فيه التسوية مع
(سبع سماوات): (فسواهن سبع سماوات)، لبيان أن
السماء الأولية سواها الله سبع سماوات.

وموضع جاء فيه لفظ البناء ولكن دون ذكر
السماوات، بل عددها (وَبَيْنَنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا).
وبهذا لم يقترن فعل البناء إلا بالسماء.

وموضع جاء فيه فعل الرفع مع السماوات: (اللَّهُ
الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)، فجاء لفظ
الرفع؛ لذكر العمدة غير المرئية، وهي المذكورة مع
السماوات في قوله: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ
تَرَوْنَهَا).

٢ - الاستواء إلى السماء.

- ٣ - الحديث عن نهاية السماء: كشط، انشقاق،
انفطار، فروج، كالمهل، مور.
- ٤ - الحديث عن السماء بمعنى الغلاف الجوي، وما
فوقه من السماء الدنيا، والظواهر التي فيها:
السحاب، الطير، نزول الماء، الرياح، الرزق، فتح
أبوابها، العذاب النازل منها، عروج البشر فيها...
تدبير الأمر ونزوله وعروجه....

وغلب مجيء السماء في المواضع التالية:

- ١ - رزق الناس المودع في السماء، باستثناء ثلاث آيات اقترن فيها
ذلك مع (السموات).

المطلب الثالث: عودة الضمائر إلى السماوات والأرض

سأتحدث عن الضمائر العائدة إلى السماوات والأرض، في القرآن

الكريم.

أولاً: عودة ضمير الجمع:

الأصل والغالب أن تعود الضمائر بالجمع، وقد ورد ذلك في الآيات

التالية:

قال تعالى: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا)، وقال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِبْ عَنْهُمْ بِخَلْقِهِمْ). وقال تعالى: (وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ)، وقال تعالى: (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ). وقال تعالى: (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ). وقال تعالى: (وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ). وعودة الضمير بالجمع واضح.

وفي قوله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ)، وسأتحدث عنه عند الحديث عن الضمير في (وما بينهما).

وفي قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا)، فالضمير جمع (فيهن)، وقد بينت دلالاته سابقا، باعتبار أن السماء الدنيا داخلة في السماوات كلهن.

وأما قوله تعالى: (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا). وقوله تعالى: (ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ). فالضمير جمع في (فقضاهن)، وفي (فسواهن)، فهو يعود إلى السماوات السبع. وكذلك قوله تعالى: (تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ) في موضعين.



ثانياً: عودة ضمير المثنى:

وقد عادت الضمائر في خمسة مواطن إليها باعتبارها مثنى، وهي

الآيات التالية:

(١)

قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا). عاد الضمير المثنى في الآية (كانتا) (ففتقناهما)، والضمير يعود إلى مثنى لا جمع، وهذا يشير إلى أصلها (السماء الأولية قبل تسوية السماوات)، كما بينت سابقاً، أي: فكانت السماء والأرض، وفتقنا السماء والأرض، ولو عاد إلى جمع لقال: فكانت، أو كن، وفتقناهنّ.

(٢)

وفي قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)، فالآية تتحدث عن سنة إلهية، وهي إمساك الله للسماوات والأرض، والآيات التي تحدثت عن سنن الله في السماء تحدثت عن السماء (مفردة)، باستثناء هذه الآية، وقد عاد الضمير إليها مع الأرض باعتبارهما مثنى، وأيضا قوله تعالى (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا).

وهذه الآية تتصل بقوله تعالى: (وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ)، فهو يتحدث عن سنته في خلق السماء، ولذلك ناسب عودة الضمير مثنى.

ومثله قوله تعالى: (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا)، أي: ولا يثقل الكرسي حفظ السماوات والأرض، فهو يتحدث عن سنة إلهية أودعها في الكرسي يحفظ بها السماوات والأرض، كما بينت هذا سابقا.

(٣)

وفي قوله تعالى في سورة الشورى (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ). فقال (فيهما)، بالتثنية، وقد ورد إثبات سجود الدواب فيهما في قوله تعالى في سورة النحل (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ).

وهناك خلط كثير في تفسير الآية قديما وحديثا، ومن مجموع الآيتين نفهم ما يلي:

(١) أن هناك دواب في السماوات وفي الأرض، وأنها تسجد لله.

(٢) أن هذه الدواب لا يدخل في مفهومها الملائكة (كما اعتقد

بعض المفسرين)، بدليل العطف في الآية الثانية وهو يقتضي المغايرة.

(٣) دابة لا تشمل الطير (كما اعتقد بعض المفسرين، وعد الطير من دواب السماء)، لقوله تعالى: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُنمِّمٌ مِّمٌّ أَمْثَلُكُمْ).

(٤) السماوات في الآية لا يقصد بها السحاب أو جو السماء، ففرق بين السماء والسماوات.

(٥) الآيتان معا يفيدان أن الدواب في السماوات والأرض، وليست في السماء والأرض،

(٦) ضمير التثنية في آية الشورى يفيد بأن الله إذا يشاء يجمع الدواب المبتوثة في السماء والأرض، فضمير التثنية يرجع إلى السماء والأرض (باعتبار أن السماء الدنيا جزء من السماوات كلها). وهذا لا يفهم من آية النحل، فإمكانية لقاء الإنسان أو دواب الأرض بدواب السماء (الدنيا) واردة، ولكن إمكانية لقاء الإنسان أو دواب الأرض بدواب السماوات الأخرى لم تشر إليها الآيات (ولعلها غير واردة)، والله أعلم بمراده.

(٤)

وقال تعالى: (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ).

فقال (ومالهم فيهما) بالتثنية، وناسبت التثنية هنا؛ لأن الآية في مقام التعجيز، فالشركاء الذين يدعونهم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة

في الأرض ولا في السماء، فضلا عن بقية السماوات، فنفي ملكهم في الأصغر والأقل هو أدل على العجز من نفي ملكهم في الأكبر والأكثر.

(٥)

وفي قوله تعالى: (السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا)، وقد وردت في ثمانية عشر موضعاً في القرآن الكريم بضمير التثنية (بينهما)، (وفي موضعين عادت إلى السماء والأرض وهو قوله تعالى: "وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا"، وقوله: "وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ")، ووردت في سورة الطلاق بضمير الجمع في قوله (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ).

وفي الآيات التي وردت فيها (وما بينهما) بالتثنية بدل الجمع: سبع منها تتحدث عن خلق السماوات والأرض وما بينهما، وخمس منها تتحدث عن ملك السماوات والأرض وما بينهما، وست منها تتحدث عن ربوبيته سبحانه للسماوات والأرض وما بينهما.

أما قوله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ)، ولم يقل (بينهما)، فعاد الضمير إلى السماوات فقط، دون الأرض، فالمعنى: يتنزل الأمر بين السماوات كلهن، وجمع الضمير

يفيد أنه يتنزل من السماء الأعلى إلى التي أدنى منها، ثم التي أدنى منها، وهكذا حتى يصل السماء الدنيا.

ولذلك ورد فعل التنزل بالجمع، وفعل التنزل يفيد المرحلية: أي ينزل مرحلة بعد أخرى، أو شيئاً فشيئاً. وقد ورد فعل (التنزل) مقترناً بالأمر وبالملائكة، كما في الآية، وكما في قوله تعالى (وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ)، وقوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ)، وقوله تعالى: (تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ). ونفى أن يكون القرآن تنزلت به الشياطين، فهم لم يسترقوه ولم يأخذوه، ولم يخبر به بعضهم بعضاً قبل وصوله إلى النبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: (وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ) (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنْهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ، فهم معزولون عن السمع، والتنزل يفيد أن ثمة من يستمع ثم يبلغ إلى غيره. (الأمر) الوارد في سورة الطلاق غير الأمر الوارد في سورة السجدة: (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)، فهذا مخصوص بالأمر الذي من السماء إلى الأرض، وهي السماء الدنيا، كما سبق بيانه.

وأما ضمير التثنية (وما بينهما)، فيرجع إلى السماوات باعتبارها جهة واحدة، والأرض باعتبارها جهة أخرى، وما بينهما، أي المخلوقات التي

خلقها الله بين الجهتين، وهي بدون شك تقع ضمن حيز السماوات، فالأرض نفسها تقع ضمن حيز السماوات. وقد سبق أن تحدثت عن هذه الدلالة بأنها إشارة إلى مركزية الأرض، فهي مركزية أخذتها الأرض بموقعها بالنسبة إلى السماوات، وأيضا بقيمتها، فجعلها الله مكانا للإنسان، وجعلها مكانا لإنزال كتبه، وإرسال رسله. فالأرض ذات مركز حقيقي وحضاري في السماوات.

وقد وردت آيات معدودة في القرآن الكريم، يفهم منها إطلاق لفظ (السماوات) باعتبار الجهة، كما يفيد السياق، ومنها هذه الآيات، ومنها آيات وردت مرة مع (السماء)، ومرة مع (السماوات)، وهي الآيات التي تنفي امتلاك الرزق عن من سوى الله، وقد وردت في خمسة مواضع، مرتين مع (السماوات)، قال تعالى: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَّا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ)، وقال: (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)، ومع (السماء) في قوله: (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)، وقوله: (أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلِلَّهُ مَعَ اللَّهِ)، وقوله: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ).

ومنه قوله: (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)، والآية رد على البشر بحسب اعتقادهم أن ثمة آلهة في السماء، ودعواهم أن لله ولدا، تعالى الله عما يقولون. فهو يقول: ليس الأمر كما تعتقدون، قال ابن عاشور: بأن المشركين (جعلوا لله شركاء في الأرض وهم أصنامهم المنصوبة، وجعلوا له شركاء في السماء وهم الملائكة إذ جعلوهم بنات لله تعالى فكان قوله: "في السماء إله وفي الأرض إله" إبطالا للضريقين مما زعمت إلهيتهم).



والله تعالى أعلى وأعلم.